حقائق في التصوف

علي سالم عمار

الكتاب: حقائق في التصوف

الكاتب: علي سالم عمار

الطبعة: ٢٠٢٠

صدرت الطبعة الأولى عام ١٩٣٧

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

عمار ، علي سالم

حقائق في التصوف/ علي سالم عمار

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٧٨ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٩ – ٨٥ – ٦٨١٨– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٨٥٦٣ / ٢٠٢٠

حقائق في التصوف



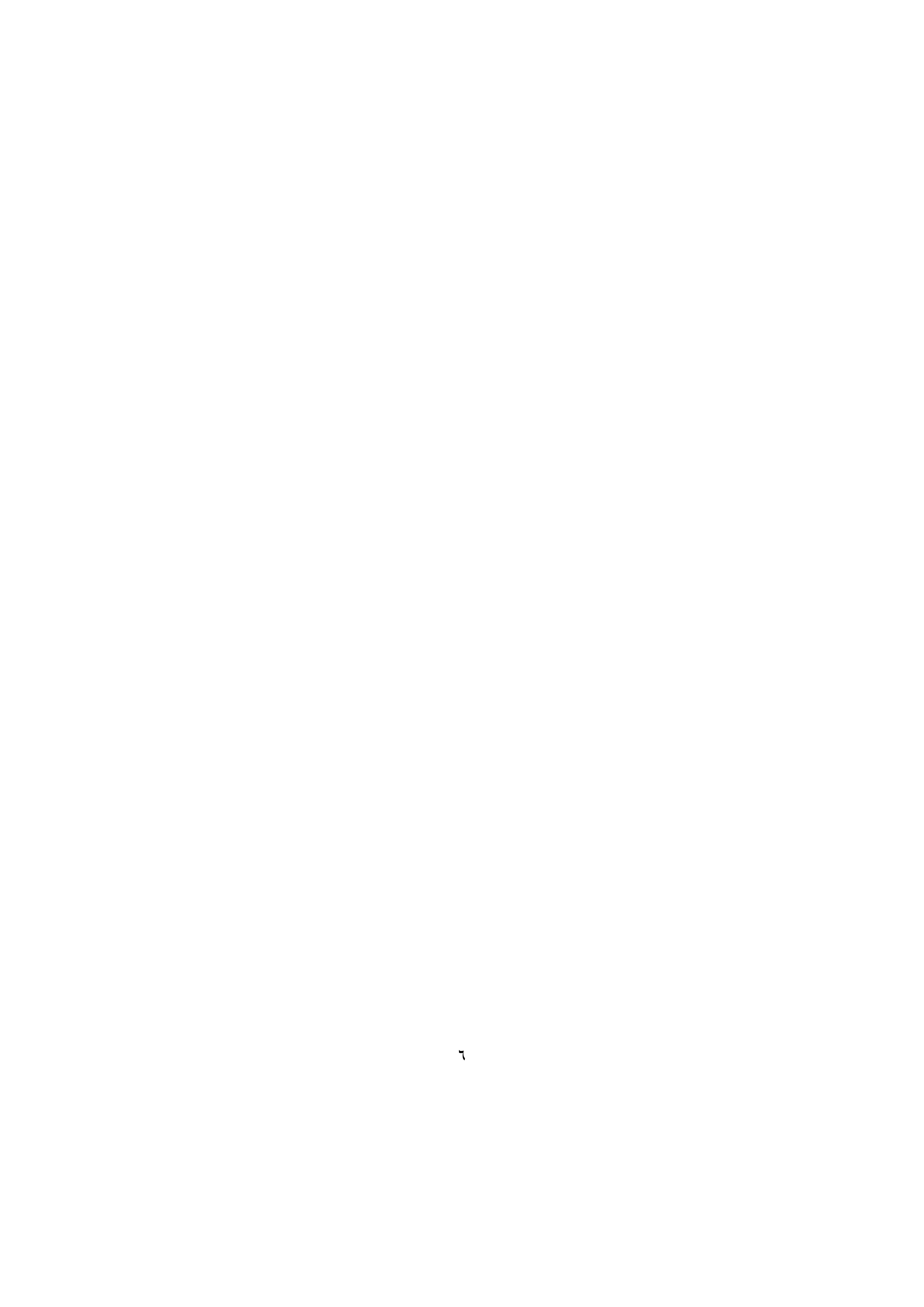


الإهداء

إلى ولدي محيي الدين عمار أولاً ثم إلى أولادي وأحبائي وإخواني ثانياً، أولئك الذين صفت قلوبهم وشفت أرواحهم، فلم تفتتنوا بالمادة وسلطانها وعالمها، بل أيقنوا أن في عالم الروح ما هو أعجب وأروع مما يشاهدونه في عالم المادة، وخصوصاً في هذا العصر الذي صارت المادة فيه كل شيء، فسخرت جميع القوى والآلات لخدمتها، وأصبحت فيه الروحية ضرباً من الرجعية ونوعاً من الأوهام. أهدي هذا الكتاب.

وأجزم أن الناس إذا ما اعتنوا بالمسائل الروحية التي هي لباب الدين فمالوا إلى ما فيها من المثل العليا الدينية التي هي الكمال الخلقي والكمال في المعرفة فتمثلوها، لبلغوا بذلك السلامة والسكينة والطمأنينة، ولاستراحوا من هذا الصراع المذهبي العنيف ومن هذه الآراء الجامحة الجارفة التي كثيراً ما تجر على العالم الحروب والويلات والخراب فتفقده السلام. والله يدعو إلى دار السلام.

علي سالم عمار



كتاب صاحب الفضيلة الشيخ مصطفى عبد الرازق

حينما كان أستاذاً للفلسفة الإسلامية بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

حضرة الفاضل المحترم السيد علي سالم عمار

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أما بعد ، فقد وصلتني رسالتكم ووصلتني معها قصيدتكم (الإنسان الكامل) وقد سرني أن يكون بين أهل الجد والعمل المثمر في الحياة شبان أمثالكم ينزعون منازع صوفية نسمو بهم إلى مثل الصوفية العليا. والتصوف نشأ معبراً عن المثل الديني الأعلى وظل في أدواره كلها يعبر عن ذلك المثل. ولقد خالف الصوفية الفقهاء والمتكلمين والمتفلسفين فتعرضوا لعدوانهم واضطهادهم من غير أن نحرجهم العداوات والاضطرابات عن حدود الحب والتسامح هذا التصوف الحقيقي الذي يقوم على الكمال الخلقي والكمال في المعرفة والذوق هو الذي نسر بأن نجد له أنصاراً بين المستعدين من شبابنا للسمو الروحي.

وقد قرأت قصيدتكم فوجدتها شعراً صوفياً لا يعيد به نقض أدبي أو لغوي أو فني فإن الصوفية تشهد بهم المعاني عن الصور ولهم صور أدبية خاصته بهم قد لا تعجب دائماً أهل الأدب الصرف ولكنها تعجب دائماً أهل الأذواق والمواجد. وما أدعي أنني من أهل الأذواق والمواجد حتى أدرك حق الإدراك كل ما في شعركم من إشارات صوفية تتصل بوحدة الوجود أو ما يقرب من وحدة الوجود. ولكنا نسلم – على رأي ابن خلدون– لأهل الأذواق والمواجد أذواقهم ومواجدهم ونغبطهم على ما نالوا من لذة العرفان ونتمنى

لهم المزيد من تلك السعادة إن كان وراء الكشف والشهد سعادة. على أنني أرجو أن توغلوا برفق فيما وراء عوالم الحس، والله يتولاكم بهدايته وتوفيقه.

القاهرة

١٩ إبريل سنة ١٩٣٧

كتابي إلى صاحب الفضيلة الشيخ مصطفى عبد الرازق

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

أرسل لفضيلتكم قصيدتي (الإنسان الكامل) راجياً التكرم بالنظر إليها، ولست أقصد من ذلك مجرد العرض. فحبذا لو سمحتم بإبداء رأيكم في مضمونها ومعانيها. على أنني لا أدعي جودة النظم ولا حسن الصياغة لأن دراستي لم تكن كافية للخوض في هذا المضمار والتعمق الفني والعلمي في هذا الباب. فإني لم أحصل من الدرس المنظم إلا لغاية سنتين بالمدارس الثانوية حتى عام سنة ١٩١٧ ثم انقطعت بعدها عن الدرس لأقوم بأعمال والدي التجارية وقد كان مريضاً ولم يكن له من الذكور سواي. وكانت مهنتنا تجارة الأقطان والحبوب. وصادفني أبان ممارستها سنون شداد وتقلبات وجهاد بين علو وهبوط ومد وجزر. تحملتهما بصبر وجلد وثبات فمنذ حداثتي وبدء حياتي ملت بطبعي إلى التصوف وتعشقت من الصوفية شعرهم وأدبهم وما يهدفون إليه من المعاني السامية ولم أمل إلى تقاليدهم وأزيائهم ومظاهرهم. وتتلمذت على أحد الشيوخ الذين لا يميلون إلى الظهور بل يؤثرون العزلة ولا يحبون أيضاً مظاهر التصوف ولم تسمح لي ظروفي بالمطالعة في كتب القوم وفي كتب الأدب العربي إلا بجلسات مختلسة. لأن أوقات التاجر وخصوصاً بالريف لا يحدوها النظام لا في الليل ولا في النهار: كما أني لم أدرس العروض والشعر على أستاذ بل قرأت منه شيئاً على نفسي. فلي العذر يا سيدي إن جاءت قصيدتي معيبة في بعض نواحيها الأدبية أو اللغوية أو الفنية للأسباب المذكورة، ويعلم صاحب الفضيلة سواء منهم المتعلم وغير المتعلم والمثقف وغير المثقف مأخوذون بالفطرة على الفطرة لأن آمال

الجميع محصورة في الاتصال الروحي المعنوي فهم مشوقون ومسوقون إلى الفناء في الأزلية والأبدية يهدفون إلى الانغمار في حضرة الواحدية أو الأحدية على قدر مفهومية كل منهم ومقدار حاله وبلوغه لدرجة ما في المعرفة. ولا أعدو أن أكون أحد هؤلاء. فعفواً يا سيدي إذا بلغت بي الجرأة أن أعرض على فضيلة الأستاذ الكبير الأزهري الجامعي الحصيف الرزين مثل هذه القصيدة فليجعل من قراءتها وقتاً للتسلية. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

علي سالم عمار

٨ – ٤ – ١٩٣٧

كتاب الدكتور محمد مصطفى حلمي

أستاذ الفلسفة والتصوف بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

وقد كان وقتئذ مدرس الفلسفة بكلية أصول الدين بالجامعة الأزهرية

وصلني كتابك ومعه قصيدتك (الإنسان الكامل) فإذا هما صورة صادقة لنفسك الصافية ومرآة مجلوة انعكس على صفحتها ما اشتمل عليه قلبك الكريم، وكنت أرجو أن أوفق إلى الرد على هذا الكتاب في حينه ولكنها كلية أصول الدين وتدريس الفلسفة وابن الفارض وحب ابن الفارض. كل أولئك عوامل أثرت في نفسي وتقاسمت عقلي وملكت علي شعوري وحسي؛ فأصبحت وأمسيت منصرفاً عن الناس والأشياء وعما ينبغي القيام به نحو أمثالك من الأوفياء المخلصين ومهما يكن من شيء فها أنا ذا أكتب إليك اليوم:

لقد كان لشعرك أجمل الأثر وأعمقه في نفسي حتى أنني وأنا أسمع هذه الألفاظ الرقيقة، والمعاني الدقيقة، كنت أشبه ما أكون بالروح الحائر المحلق في السماء يلتمس مكانه وإلفه في عالم الأرواح، فحينا يعلو وحيناً يهبط وتارة يميل ذات اليمين وتارة ذات الشمال لفرط السكر وشدة الترنح.

وهكذا أتاح لي كتابك لحظة من اللحظات الخالدة التي قليلاً ما تعرض للنفس الإنسانية التي إذا عرضت لها عاشتها هذه النفس في

سعادة وراحة وطمأنينة لا تشوبها شائبة طوال الأعوام التي تستوعب عمر الإنسان. فهيئ لنا ما شئت من هذه اللحظات العزيزة على نفسي الكريمة لدى قلبي، وابذل من هذه الرياضات الروحية التي تسمو بنا من عالم الشهادة إلى عالم الغيب حيث السعادة الدائمة والنعيم المقيم وحيث تتصل الأرواح ببارئها وبأشباهها في ظلال الملأ الأعلى الذي خرجت منه وصدرت عنه. والسلام.

محمد مصطفى حلمي

١٦-٤-١٩٣٧

كتاب السيد محمود صادق

وبعد فقد استلمت خطابكم، وكأنه قميص يوسف إلى يعقوب وإني أشكر الله على ما أولاك من نعمة الفتح؛ ولعمري أنه ليبشرنا لك بالعطاء المطرد والمزيد. أما قصيدتكم (وحدة الوجود) فغاية في البهجة والروعة، بالغة في الجمال والدقة وليس لمثلي أن يصل لفهم ما حوت من المعاني الرقيقة والإشارات العالية. ولقد عرضت القصيدة على كثير من إخواني المدرسين. فأعجبوا بها كما أعجبت. بل أن أحد إخواننا ممن لهم إلمام واسع بالتصوف ولبيتهم قدم راسخ فيه قد تطوع لشرحها. ولما فاتحني في ذلك أشرت عليه أن يتريث لأني خشيت أن يخرج عما تقصد من المعاني والأهداف واتفقنا أخيراً أن نكلفك بالشرح، ولا أخالك إلا مجيباً. وأرجو الله الفتاح العليم أن يهيئ لك الحال الصافي والفراغ الكافي وأن يمدك بروح من عنده حتى تتحفنا مرة أخرى بما هو جلاء للقلب. وبما يسمو بالنفس إلى حظيرة القدس. وهو نعم المولى ونعم النصير. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أخوكم .. محمود صادق

١٢-٧-١٩٣٢

وحدة الوجود

(هنـد) أنـت المنى وأنـت المنايـا؟ نعمـة أنـت أم جمـاع البلايـا؟
تبسمي في الخفى فتشرق روحي مـن وميض اللمـا وبـرق الثنايـا
وتـذوب القلـوب شـوقاً ووجـداً بحلـول الصـفا وصـقل المرايـا
مظهـر لاح فـي وراء ومجلـى وغنـاء ولـذة ومزايـا
مشـهدٌ يجـذب الخلـي بهـاءً وبهـاءٌ مطلسـم بالخفايـا
يسـحر اللـب والفـؤاد يلهـو بأسـود الشـرى فتمسـي سـبايا
فيـه للعاشـقين لغـز خفـي ومصون الجناب تحت الحنايا
خمـرة تحتسـى بغيـر مـدام وتمسـي العقـول قبـل الخلايـا
فهـي كالنـار والسـعير لهيبـا أكـل الغيـر والسـوى والخطايـا
كـم لهـذا الجمال الصرعى وقتلى ونشـاوى تهتكـوا وضـحايا
لـو أزيـح السـتار عنـا لمحنـا ذلـك السـر لا عنـاءً ولايـا
ظـاهرات تشـع نـوراً جليـا مـن سـماء العـلا بقصـد هـدايا
باسـطات بكـل شـيء دلـيلاً لخلاصـي مـن القيـود عسـايا
هنـد شـمس تبرقعـت بحجـاب عـن مرائـي العيـان بـين الطوايـا
وهـي روح الوجـود لـب المعـاني قـد تجلـت تحائفـاً وهـدايا
يـا خليلـي استفق (فهنـد) حيـاتي لا تنـاغي ولا تحـب سـوايا
كـم لهـا منـة علـيَّ وفضـلٌ وسـخاءٌ ورحمـةٌ وعطايـا

لو صفا القلب لارتقى لملاك … وسما فوقه وفوق البرايا

أتمادى على البعاد وتدنو … كل يوم شغوفة برضايا

أتغاضى تغافلاً ودلالاً … أو جحوداً لها فتظهر آيا

كل ما في الوجود سر طريف … ومزامير كلهن وصايا

رتبتها بحكمة وجمال … وافتنان وجلوة وعنايا

قل لماذا تحجبت وتسامت … عن عياني وأدلجت بالخبايا؟

قد تعبنا بكشف سر دقيق … دونه دائماً حجاب الخفايا

تعب الكل في تقصي أمور … لا تؤدي جلاء الروايا

فغموض يدق إثر غموض … تنتديه الشكوك رغم النوايا

نكتة يهرع الحكيم إليها … جاهد الفكر خاضعاً لقضايا

والقضايا موصلات لأخرى … مع قياس ومنطق ومهايا

فاسترح أيها الحكيم ورفقاً … من طويل العنا بجهد المطايا

فمتى كان للنهار دليل … والضحى واضح وشمس البرايا

إن فيض الوجود قصة حب … ذات قلب ورحمة وكفايا

فاستمع قصة الوجود بقلب … مرهف منصت لفهم النهايا

قصة الحب بهجة وانشراح … في قلوب مطهرات الطوايا

نحن لحن الخلود فينا ومنا … آلة العزف مزهرا أو نايا

ولنا الحق قد تجلى وأجلى … وبنا صفحة الوجود مرايا

رب أنغام ذات نوع وروع … كلها مبعث لوحدة غايا

(هند) أضحت على الأريكة تشدو	وتنـادى الخلـود والوصـل نايـا

حسـنها يرتـدي الخمائـل والخـز	لهـا المجـد والعـلا والتحايـا

أقســمت أنهــا بعيــدة عنــا	مـا تبقـى مـن النفـوس بقايـا

وهـي معنـا طـوى حقيقـة كـون	وإليهـا المعـاد مثـل النهايـا

الإنسان الكامل

كـل هـذا الوجـود أسـفر عنـي　　　كـل هـذا الوجـود أسـفر عنـي

كـل هـذا الوجـود أسـفر عنـي　　　فأنـا نسـخة الوجـود الأغـن

أنـا حـق، وصـفحة الخلـق حـق　　　بـرزت فـي، فـي بـدائع فـن

أنـا فعـل؛ وفعـل ربـي عـدل　　　ثـم فضـل، لـه الرجـاء والتمنـي

أنـا فـي الوضـع كالخيـال ولكـن　　　قـدير أنـي العيـان جرمـاً بـأين

نقطـة الـوهم، نكتـة الفصـل خـط　　　فخطـوط تلـوح مـن وجهتـين

هـذه الشـمس تجعـل الظـل رمحـا　　　ثـم مـن بعـد ميلهـا رمحـين

ذلـك الظـل فـي الصـباح ظـلال　　　تتلاشـى والشـمس فـوق الحـزين

تشـبه الـثلج إذ يـذوب ويفـن　　　فهبـاء لـدى الألوهـة كـوني

فوجـودي نشـا نشـوءاً معـاراً　　　لست في الأصـل مستقلاً بشأني

وحيـاتي مفاضـة مـن حيـاة　　　ذات فـيض وذات علـم لـدني

إنمـا الحسـن والجمـال المفـدى　　　أبدعتـه يـد لهـا كـل حسـن

قـوة فـي الخفـاء ذات اقتـدار　　　ومليـك منـزه عـن شـين

عنـدما اشـتاق وهـو فـرد غنـي　　　لمعـة للصـفات فـي ذات عـين

أخرج العين فاستجابت وأضحت　　　مطلـع النـور صـنعة الكفـين

وهي إن شئت قلت روحاً ولطفاً　　　وإذا شـئت قلـت جسـماً بغـين

تتهـادى تأرجحـاً بـين نـور　　　وظـلام لجمعهـا الصـفتين

فهي بالروح قد تعاني المعاني جذبة الحب قبلة الخلين

لم أزل جامع العناصر فرد جوهر في كثيف أو بين بين

لست في شك أنني بعد مشدود إليها وموثق في تجني

فاشتمالي على العناصر أدنى فهمها لي بجذوة العلم مني

واشتياقي إلى معيني علا بي بشعاع من الضياء اللدني

وارتباطي مع الملا هز روحي للتعالي وللحظير الأغن

أنا حق، لأنني ذو حياة ووجود وذو مقابلتين

أنا لوح، وفي خط هجاء ألف الحرف همزة الوصل مني

قلم النور خط قبل كتابي وهو يبدي مع المشيئة شأني

صورتي للوجود مجلي ومقلي مجمع الضد مبعث للتغني

صفحتي تطبع الحقائق فيها وأمامي أنا، كمالي وأيني

بانطباعي على المرايا أراني أنا نفسي وليس غيري لعيني

حكمة للحكيم جاءت وفاقا في وضوح ودقة وتأني

غمرتني جلائل العز والنور فأضحى يظن في التبني

ظلموني إذ ألهوني ومالي غير ظل كذا العبودة قرني

شرَّف الله بالمحبة قدري وحباني صفاته فهو حصني

صرت موهوبا بالأصالة مرهوبا مطاعاً وصار نوري وعوني

وكفتني لبابتي كل شيء فقضى لي بحبه كل دين

خضعت لي عوالم الكون لما أنست بي بنسبتي وبأيني

في يدي الملك من جبال وسهل ثم مفتاح كل كنز وكن

قد تحكمت في الخلائق طراً كل طير وكل وحش وجن

فانطوى لي الحديد كالطين حتى صار أهدى ولان سنا بسن

واهتبلت الدفين من معدن الأرض، فأنبأ يقول أني وأني

واكتشفت القوى وجمعت منها كهرباء ومغنطيساً بفني

ثم جُبت البحار ظهراً وبطناً واختزنت العجيب في طي دني

وامتطيت الهواء مرقى ومسرى مركباً كالبراق للفوق يدني

واتخذت الأثير بعد رسولاً صادقاً كالأمين ينقل عني

واعتزمت المسير للنجم لما قست ما بينه اقتراباً وبيني

ثم لازلت أهتدي في نجاح لارتياد السها بوقدة ذهني

كلما خاطري يواجه أمراً يتدلى كما أشاء وأعني

كلها مدهشات يحبسها الغفل فعال السماء أو أعمال جن

كيف لا والحبيب أيد نصري أرسل الفيض في سحابة مزن

أو لست الذي خليفة ربي قمت بالأمر حيث ربي أذني

وقد أختار أن أكون أماماً فلي العرش والعلا والتكني

واجتباني إلى مقام فريد فوق طور الوجود والحب فني

فرياحي إذا تهب شمالاً أو جنوباً تحرك الوجد مني

لذة القرب جد تستوعب الدهر كأن الزمان غمضة عين

موقف فذ فوق نقل وعقل لا يرى فيه من شعور بكون

لحظــات تمــر بالقلــب تبقــى ... جنــة العــز والرضــا والتهنــي

حالــة تــربط الخلــود بوصــل ... محنــة الحــب صــعقة الكــونين

تلكـم الحـال لا ترجـى بصـحو ... فهـي تمحـو الفـروق بـين اثنـين

لا تقـل كيـف فـالجواب سـلام ... واغمـض العين وامـح رؤيـة غـين

إن تـرم صـوغها حـديثاً وذكـراً ... لـم تـزد فـي الكـلام عـن حـرفين

فـالتجئ للشـراب شـوقاً وذوقـاً ... تعمـر القلـب والسـعادة تجنـي

والـتمس منـه مـا يـروق ويحلـو ... مثـل لـون الزجـاج لـون اللجـين

فهو ينبيـك عنـدما تلعب الخمر ... ويــأتي الــذهول عــن طــورين

ذاك تيـار مـن أنـين ووجـد ... وهــو موجــات بــين مــد وغــن

لغـة الحـب كالطلاسـم لغـز ... كهربـاء تـدب فـي قلبـين

قلمـا الترجمـان يصـطنع الشـرح ... ويرضـي البيـان فـي لغتـين

كـل مـن رام للكمـال مقامـاً ... فبلـوغ السـبيل بالحسـنين

الحب والمحبوب

الحـــب عنـــدنا أمـــل — والحـــب علـــة العلـــل
بســـتان كرمـــي هيكلـــي — وخمرتـــــي هـــــي الأزل
والكـــاس قلبـــي يصـــطلي — خمـــــراً كنـــــار تشـــتعل
مـــــرآة قلبـــــي قبلتـــــي — إذا تصـــفت مـــن زغـــل
منهـــا وفيهـــا أهتـــدي — لفطرتـــــــي فأتصـــــــل
و(هنـــد) رمـــز نعمتـــي — هـــي الجمـــال والمثـــل
(فـــــذاتها) مصـــــونة — عمـــا يـــرى ويحتمـــل
وحيـــــــدة بعيـــــــدة — عـــن الشـــبيه والبـــدل
إن رمـــت وصـــف كنههـــا — لســـان حـــالي ينعقـــل
الغيـــب نـــور حســـنها — والويـــل منهـــا والوجـــل
أحـــن شـــوقاً بـــالهوى — أغيـــب حتـــى أنـــذهل
وبـــين حـــال ســـكرتي — ألقـــى شـــهودي منفعـــل
ســـلطان حبـــي حـــاكم — علـــى الفـــؤاد والمقـــل
فجـــــوهري وهيكلـــــي — يفنـــى بهـــا بـــلا مهـــل
ودهشــــــتي تســــــوقني — فـــي حـــب هنـــد للخطـــل
وثـــم حـــال عـــاطفي — موحـــــــد ومكتمـــــــل
ذوقـــي يقـــول أنهـــا — أضـــحت أنـــا ومـــا أشـــتمل

مشـــــاعل يشـــــعها نـــور الحبيـــب والغـــزل

مواجـــــدي مبـــــاهجي وصـــل يطيـــب بالقبـــل

العقـــل منـــي حائـــل وحاســـم بـــلا دخـــل

فمـــا أنـــا كعينهـــا قطعـــاً كلانـــا منفصـــل

أمـــا الســـوى ففيضـــها حـــــادث ومفتعـــــل

وذاتهـــــا فريـــــدة مفيضـــة لمـــا حصـــل

حكيمـــــة رحيمـــــة قديمـــــة هـــــي الأزل

عليمـــــة مريـــــدة قـــــديرة بـــــلا مهـــل

كـــل لـــه حقيقـــة مثلـــي وذات مســـتقل

فـــالفرق بـــون شاســـع أعلـــى ابتعـــاداً مـــن زحـــل

حـــواجز موانـــع هيهـــات عنـــا ترتحـــل

لكننـــي بحبهـــا أفنـــى فنـــاء لـــم يـــزل

وأينمـــا طلبتهـــا علـــى شـــعور مكتمـــل

مـــا خلـــت أنـــي غيرهـــا والبـــين عنـــا منعـــزل

حقيقـــة دقيقـــة والكـــل فيهـــا متصـــل

مقدمة

الحمد لله المبديء المعيد، واهب الفضل ومفيض الوجود، والصلاة والسلام على النبي العربي الطاهر الزكي الذي أعلا منار التوحيد بالعلم السديد، لينهل منه العارف الرشيد وعلى آله وصحبه والتابعين ومن تابعهم بإحسان إلى يوم الدين، ما فني محب عن الوجود.

أما قبل: فقد كان أخي الأستاذ السيد محمود صادق محروس مدرساً للحساب بمدرسة أبي كبير الابتدائية منذ سنة ١٩١٣م وكنت أحد تلاميذه الذين توثقت بينه وبينهم عرى الصداقة والمحبة. ثم ازدادت بعد ذلك روابط المودة توثقاً حينما تتلمذت على أستاذه في طريق الصوفية (الشيخ سليمان علي ربيع الشهير بسليمان فوزي) الشاذلي القاوقجي رحمهما الله وجزاهما عني خير الجزاء.

كان السيد صادق من المولعين بالشعر والأدب علاوة على انغماره في التصوف ودقته في أداء الواجبات من تلاوة الأحزاب والأوراد والذكر. ومما ورثت عنه ولعي بالشعر ومحاولتي للنظم. وصار هو كذلك يشجعني في هذه الناحية ويرشدني إلى ما يستفيد منه الطالب من المطالعة في بعض الكتب الخاصة بالعروض والقوافي ودواوين الشعراء وكتب الأدب. ولكن أنى لطالب بالمدارس الابتدائية أن يلم بها وأن

يستفيد منها فائدة تمكنه من الخوض في هذا المضمار؟ ومهما يكن من أمر. فهناك هذا التصوف الذي سرت معه. فاغتباطي وتقديري لشعر ابن الفارض والبهلول والجعبري مما يرتله المنشدون على مجالس الذكر، وشغفي بقراءة ما قد تيسر لي من شعر ابن عربي وغيره من شعراء الصوفية جعل للشعر حالة في نفسي وخاطراً في ذهني وفكري ومالي لا أقول الشعر وقد سمعت (اتقوا الله ويعلمكم الله) وعرفت أن كثيراً من هؤلاء الشعراء لم يكن لهم معلمون يدرسون عليهم العروض!

نظمت شعراً، وكنت كلما أنظم شيئاً أعرضه على السيد صادق فيصححه، وكلما أنظم شعراً صوفياً أعرضه عليه فيستحسنه؛ وفي يوليو سنة **١٩٣٢**م كان يشتغل بمدرسة المحمودية الابتدائية وكنت منذ زمن بعيد أعمل بالتجارة، فأرسلت إليه القصيدة المسماة (وحدة الوجود) والتي مطلعها:

(هند) أنت المنى وأنت المنايا؟ نعمة أنت أم جماع البلايا؟[(١)]

وجاءني منه رده المنشور بصدر هذا الكتيب والذي كلفني فيه بشرحها؛ ولشد ما كانت رغبتي أكيدة في سرعة إنجاز ما طلب ولكن مشاغلي الكثيرة وأعمالي الخطيرة حالت دون الإجابة السريعة، ومرت أعوام خمسة تقريباً كنت خلالها أحاول المرة بعد الأخرى، ولم أوفق

---

(١) نشرتها مجلة المعرفة بعدد أغسطس سنة ١٩٣٢

بسبب كثرة أعمالي التجارية وما تضطرني إلى الأسفار وما ترهقني به من الهموم والأكدار في أحيان كثيرة تبعاً لتقلبات الأسعار وكساد السوق.

ثم جاء وقت أكدت فيه الشروع في الشرح وجلست إلى نفسي عاكفاً على التفكير في الموضوع للإلمام بنقاطه ونطاقه، ولكني ما لبثت أن وجدتني أمام مشاكل عويصة الحل ومسائل شائكة المدخل؛ وموضوع يصعب على أي كاتب تحديده إذا أراد الإبانة عنه على وجهه الأكمل، والكشف على دقائقه ومراميه في صورة سهلة مبسطة وفي عبارة سلسلة فأمامي عقائد دينية، وأمامي آراء ومذاهب فلسفية؛ وأمامي مفاهيم ذوقية تصوفية وأحاسيس وجدانية روحية. لا بد لها كلها من وقدات ذهنية خارقة. قد لا أجدها في كل وقت أجلس للشرح فيها خصوصاً إذا أصبح الصباح ودخلت إلى دوائر الأعمال والأسواق؛ وغير هذا وذاك فقلما يستسيغ القارئ الجمهوري. أو القارئ البسيط الذي لا يلم إلماماً كافياً بكل هذه المواضيع وأن يفهم تمام الفهم. ولا بد لي إذ أشرح أن أكون مفهوماً، وإلا فما فائدة الشرح الذي يحتاج إلى شرح آخر. وما قيمة الكلام الذي لا يقوم على بساطة التعبير وحسن الأداء وجودة البيان، وكل همي أن أؤدي هذه الرسالة إلى جمهور الأحباب والإخوان كما هو المرجو من التكليف الذي أراده السيد صادق. عكفت طويلاً تتجاذبني هذه الخواطر؛ وودت لو وجدت لدى القراء من المشارب والأذواق والإلمام ما ينصفني لديهم. فإن الكثير في مسائل التصوف عويص ومعقد والكثير من الآراء الفلسفية فاسد وملفق.

حسبنا في الدقة ما هناك من الفروق الشكلية والجوهرية مما يقال عنه بين الحس والعقل، أو بين العقل والقلب، أو بين القلب والروح، أو بين الروح والسر، وهذه مسائل لا تحل بالدليل الجدلي أو البرهاني، وهناك مسائل لا تستطيع كل هذه الآلات والأدوات أن تؤمن بها، وتحال إلى الروح لتحكم حكمها فيها. وأخيراً قد تؤمن الروح بغير جدال أو برهان. فإذا كان للروح السلطان الذي يسيطر على هذه الأدوات والآلات فإنها تؤمن كذلك، وإلا بقي النزاع قائماً.

خالجت نفسي هذه الخواطر، ثم هجم علي شعور باطني ذاتي ذلك الذي يهجم على نفس الصوفي؛ فملك عليّ شعوري وسيطر على حواسي فتسامت نفسي إلى الملأ الأعلى تسبح في عالم النوراني وتتسامى إلى معين الكمال تتلمس المثل الإنسانية العليا الكاملة، وما هي إلا لحظات أدركني من فورها النوم العميق ثم استيقظت أستمع لنفسي ولساني ينطق هذا الشعر:

كل هذا الوجود أسفر عني فأنا نسخة الوجود الأغن[1]

هذه رؤيا منام، أفقت عندها أردد البيت وأستعذب معناه، ثم قيدته، وأديت صلاة الفجر وكنت منهوك القوى مزدحم الأفكار فما عدت إلى فراشي حتى أدركني النوم من جديد واستيقظت من بعد قبيل الظهر فهرولت إلى عملي وتناسيت ليلتي الماضية وما كان فيها وبعد بضعة أيام

---

(١) هذا مطلع القصيدة المسماة (الإنسان الكامل)

أردت العودة إلى موضوع الشرح فعاد معي الشعر من جديد فاشتغلت أفكاري به ونظمت النظم على هذه الوتيرة ثم تفكرت قليلاً عندما فرغت من الشعر وصرت أخاطب نفسي (لقد فسرت الماء بالماء).

ثم قلت لنفسي: حقاً إن الصوفية مغلبون على أمرهم وليس في استطاعتهم أن يحددوا أفكارهم أو أن ينظموا أحوالهم. فما دامت هذه الأفكار تهبط عليهم من خارج فوق طورهم. تملكهم الأحوال ولا يملكونها. فطوبى لمن ملكه الحق فسدد خطاه.. إن للقلب حركات تعلو على الحس وإن للروح لمعارج تدق على السر، وإن رحمة الله قريبة من المتقين.

أما بعد: فماذا أقول بعد هذا، وبماذا أتكلم، وهذا عصرنا حافل بالعلماء والأدباء والكتاب الذين تخصصوا في هذه البحوث وقدموا فيها الشروح على ضوء العقائد وأصول الدين وعلى ضوء المنطق والفلسفة، وعلى ضوء الكشوف العلمية الحديثة ومنهج البحث الحديث. اللهم إني عاجز عن الإتيان بحديد ولا أزعم أني سأجلو الغامض أو سأحل هذه المشاكل إذا تكلمت. ولكني استجابة للرغبة وحرصاً على الوفاء فقط سأكتب للإخوان وللأحباب موجزاً مما قرأت في الموضوع. أما شعري فسيظل لذيذاً كما كان حلماً لذيذاً يضرب على أوتار القلوب الغارقة في المحبة يبعث فيهم البهجة والفرح والسرور.

وموضوع الشرح هو موضوع الروحية والتصوف قبل أن يكون كلمات وألفاظ لغوية ذات معان بيانية أو بديعية. فإن الصوفية لا يهمهم

هذه النواحي ولا تتأتى لهم إلا إذا كان المقصود منها الرمز والإشارة، كما أنها لا تعجب أهل الأدب الصرف كما يقرر الأستاذ الأكبر المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق في كتابه لي. وعلى هذا أصبح موضوعي قبل كل شيء هو موضوع الروحية والتصوف. والتصوف الآن ينصرف معناه إلى معاني شائعة هي المفهوم الشعبي وإلى معان علمية وحقائق بدائية كامنة فيه وتتناوب هذه المعاني وتلك الظهور ثم تسود كل منهما على الأخرى بين فترات الانحلال والانحطاط والتدهور والجهل، وبين فترات الازدهار والفهم الصحيح والتحقيق العلمي المصحوب بالتدين، وهو في كل حالة من الحالات وفي كل طور من الأطوار يتلون بلون العقيدة وبالمذاهب السائدة في البيئة وفي العصر، وأراني حينئذ مضطراً لبيان التصوف الذي أعنيه.

أما المفهوم الشعبي الشائع للتصوف فهو ربط عقلية المرء بسكان الأضرحة والقبور وقبول وساطة الشيوخ بل أن السلطة الإلهية تتمثل فيهم، ففي قدرتهم أن يغيروا وأن يبدلوا من الأحداث وفق إرادتهم، لذلك تجد الجمهور الذي ارتسم في نفوسهم هذا المفهوم يلتمسون العون من الشيوخ أحياء أو أمواتاً ويستدرون من بركاتهم الخير وقضاء الحوائج فهم يردون الغائب والضائع ويزيدون في بركة الزرع والضرع، حتى انك لتجد من الجمهور من يجعل لهم حقاً في الأرزاق والأموال ويعتقدون فيهم التحكم في مصائرهم لأن لديهم من علوم الغيب ما ليس لدى الناس فتمتمتهم مناجاة وغمغمتهم استنزال الإلهامات التي في قوة الوحي أو القريبة منه، وكذلك أوهم دعاة السوء والدخلاء والمشعوذين

البسطاء والسذج بهذه الفعال أنها كرامات أو فوق الكرامات، ولم يكلف الناس أنفسهم عناء البحث والتفريق بين الشعوذة والتنجيم وبين الكرامات؛ فاختلط الأمر عليهم وحسبوه لباب التصوف والدين وليت الأمر وقف عند هذه الحدود بل تعالى بعض الدراويش فادعوا أن الله فضلهم على عباده وآثرهم عليهم وأباح لهم ما حرم على غيرهم فتجرءوا على فعل المنكرات والمخازي تحت ستار التصوف والدين، وكل هذا مخالف لصريح الأمر والنهي ومخالف للمعقول والمنقول ولظاهر الشرع وباطن الأحكام ومناف لروح الإسلام وبعيد عن مرامي الدين وعقيدة التوحيد، ينكره التصوف الصادق ويحمل عليه أشد الحملات ويبرأ منه لأنه ليس منه لا في كثير ولا في قليل فلا هو في الأصول ولا في الفروع، كل هذا بلا شك أثر من أثار تعاليم الشيعة وعقيدتهم وقولهم في الإمام.

وليست أمثال هذه الفعال جديدة، وليس أمر الدخلاء والمشعوذين جديداً بل قد فشا في التصوف من قبل وتبرم به القوم وشكوا منه مر الشكوى فهذا الأستاذ القشيري المتوفى سنة ٤٦٥هـ رحمه الله ينعي أمر الدخيل وكثرته والطريق وما اندس فيه ويحذر الناس أن يعتقدوا أن التصوف بنى أصوله على هذه الفعال أو على أشباهها فيقول في رسالته: اعلموا رحمكم الله أن المحققين من هذه الطائفة قد انقرض أكثرهم ولم يبق غير أثرهم كما قيل شعراً:

أما الخيام فإنها كخيامهم ... وأرى نساء الحي غير نسائها

حصلت الفترة في الطريقة؛ لا بل دُرست الطريقة بالحقيقة، مضى الشيوخ الذين كان بهم اهتداء، وقل الشباب الذي كان لهم ولسنتهم اقتداء، وزال الورع وطوى بساطه واشتد الطمع وقوي رباطه؛ وارتحلت عن القلوب حرمة الشريعة، فعدوا قلة المبالاة بالدين أقوى ذريعة؛ ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام، ودانوا بترك الاحترام والاحتشام؛ واستخفوا بأداء العبادات واستهانوا بالصوم والصلاة، وركضوا في ميدان الغفلات، وركنوا إلى اتباع الشهوات وتعاطي المحظورات، ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الفعال. حتى أشاروا إلى أعلى الحقائق والأحوال، وادعوا أنهم تحرروا من رق الأغلال، وتحققوا بالوصال.

أشفقت على القلوب أن تحسب أن هذا الأمر (أمر التصوف) على هذه الجملة بنى قواعده، وعلى هذا النحو سار سلفه فعلقت هذه الرسالة إليكم أكرمكم الله. أرأيتم أيها الأحباب كيف وصف القشيري رحمه الله تطور الحال وسوء المال فما بالنا وقد مضى من الزمن تسعة قرون، وكم جد خلالها من أفكار وآراء وكم ظهرت من مذاهب ومتاعب وكم تغيرت الاتجاهات بذيوع كثير من المعتقدات وكم حدثت من فتن وضلالات. فحق للناس أن يتبرموا وحق للعارفين أن يشفقوا وناهيكم بطغيان العلم الحديث وتأثره بوسائل العقل وطغيان المدنية الحديثة وتأثرها بالنزعة المادية التي أصبحت تسيطر على الأفكار إلى درجة العبادة وغير هذا وذاك ما كان من نقد الفقهاء والمتكلمين والمتفلسفين وعلماء الاجتماع كل هذه عوامل ذات أثر كبير كانت ولا تزال حرباً على التصوف والصوفية، ولكن مع كل هذه الظروف رأينا أنه كلما ازداد البحث العلمي

على ضوء أصالة الرأي وحرية الفكر وبعد الغرض لا تزال نزاهة العلم وروحه الشفافة تكشف لنا جوانب قوية هدت إليها التجارب تزيد اليقين بنزاهة علم التصوف ومقدرته وتضفي عليه معاني جديدة يفهمها الجيل الجديد بوسائله الجديدة وأساليبه الحديثة حتى ليوشك الباحثون فيه من العلماء أن يقعوا فيه كلما حاموا حوله. لأن أنظمته الجذابة وما فيه من لطف الإحساس وشريف العاطفة لا يمكن التحرز منه.

كثير من الناس يخشون كلمة الروحية وخاصة المتعلمين ودعاة الإصلاح وقد يرون أنها ضرب من الرجعية وأثر من آثار القرون الوسطى والذي دعاهم إلى ذلك أنه إذا ذكرت الحياة الروحية ذهب خيالهم إلى الأديرة وسكانها والتكايا والمنقطعين إليها؛ ورجال الذكر والموالد والمشعوذين من رجال التصوف والدجالين والمنجمين وأمثالهم ممن هم عالة على الناس، فهذه هي الروحية المزيفة.

إنما نعني بالحياة الروحية حياة تؤمن بأن هذا العالم ليس مادة فحسب وأن سيره لا يمكن أن يفسر بقوانين (داروين) وحدها من الانتخاب الطبيعي وبقاء الأصلح، فإن هذا إن صلح تفسيراً للتطور فإن يصلح تفسيراً الحياة الخلية، وحياة العالم؛ ففينا بجانب المادة روح؛ وفي الأحياء روح؛ وفي العالم روح، والله من ورائهم محيط، وهذا الروح الأعلى الذي أودع العالم قوانينه ونشر فيه جماله؛ واتصال الإنسان بهذا

الروح يسمو به ويعلي من شأنه ويرفع من ذوقه.[1]

وإن ظهور الكشوف العلمية من الكهرباء ومن الإشعاع الذري، وكذلك ظهور بعض النظريات الفلسفية المعتدلة تكاد إذا فهمت منها صحيحاً وطبقت على العقيدة الدينية أن تزيد المرء في التعرف على الله وفي التعلق بالتوحيد ثم تقوي إيمانه بحكمة الدين والاستزادة من طلب السمو الروحي[2] وكثير من المتعلمين والمأخوذين بكفاية العلوم الحديثة إن ارتقاء العلوم كفيلة بسلامة الناس وطمأنينتهم ونشر السلام العام لأن الأديان في هذا الزمان قد فشلت عن كبح الشرور والحد من عوامل الفتن والفساد. لذلك انحرفوا عن الدين إلى الفلسفة والعلوم وأهملوا طلب التخلق بالكمالات الدينية وظنوا أن انحرافهم هذا سيحقق لهم السلامة والسلام.

ولا شك أن رفع المستوى الروحي أهم الوسائل لخلق الشعوب وسلامتها والوصول بها إلى قمة المجد، وقد ألقى علينا التاريخ دروساً خالدة، وقصاراها أن هبوط المستوى الروحي لا يجدي بجانبه ارتفاع أي مستوى آخر بشتى نواحي الحياة. وغايتنا من السمو الروحي تربية النفس لكي نطمع للمجتمع في حياة طيبة كريمة يظلها الخير والتوادد والتراحم؛ فنحن لا نطمئن إلى الثروة تتقلب بين الأيدي؛ ولا إلى العلم يكثر فينا المهرة والمتخصصون، ولا إلى الصحة تشتد بها السواعد وتسلم

---

(١) الدكتور أحمد أمين بك كتاب فيض الخاطر

(٢) المرحوم الأستاذ عبد الله حسين (كتاب التصوف والمتصوفة)

الأبدان؛ فكل هذه القوى جديرة أن تتلاشى وتتخاذل وأن تنقلب شراً وبيلاً إذا نزلت الناحية الخلقية إلى الحضيض[1].

ولا أعتقد أن التقدم العلمي والفلسفي بقادر على التغلب على هذه العوامل فقد شاهدنا أن الحروب تزيد هولاً ووحشية كلما ازداد تقدم العلم وأنه أمضى سلاحا.

والمتدين حين يعالج هذه المشكلة يجب أن يذكر أن الأديان كلها اعتمدت على أصل راسخ من غريزة التدين دفعته إلى الثقة بأن العالم مجموعة متناسقة تسودها قوة حكيمة مدبرة عادلة ترقب النيات وتحكم الضمائر وأن هذه الحياة صائرة إلى غاية المسئولية والمجازاة ويجب أن يكون المهيمن على عمل الإنسان من داخل الإنسان وهو خوف الله.

إن الخطر الذي يداهم البشرية والإنسانية لا يجيء من أديان المخالفين وإنما يجيء من الإلحاد ومن المذاهب التي تقدس المادة وتعبدها وتستهين بتعاليم الأديان وتعدها هزواً ولعباً، وأن ما نال الإنسانية في عصور التدين من شرور وما قعد بها عن بلوغ الأمل المرجو في السلام الروحي ليس لشيء في طبيعة الدين بل لانحراف في اتجاه الشعور الديني فالشعور الديني يرفع الإنسانية إلى ما فوق الاعتزاز باللون والدم والجاه والطبقة والثروة. وهو صالح لأن يغلب الحقد والحسد

---

(١) معالي محمد العشماوي باشا نائب رئيس رابطة الإصلاح الاجتماعي ووزير المعارف السابق– بمجلة الفجر الصادق عدد رجب ١٣٦٥

والأنانية وفيه من تطمين النفس ما يقلل بطرها بالغنى ويهون عليها الفقر، ويخفف عنها ثورتها عليه.

والشعور الديني يكرم النفس الإنسانية ويحدوها إلى المعرفة والحكمة ويكره إليها الجهل والحمق[٢]. والدين هو ما صبته الصوفية حاراً في النفس الإنسانية ثم يبرد تبريداً حتى يتبلور وبهذا يستطيع الجميع أن ينالوا قليلاً مما يتمتع به هؤلاء الممتازين؛ لذلك هم يكشفون للناس دائماً عن أفق عجيب[١] وكثير من المتعلمين يقولون إن العبادات والاشتغال بها عمل لا طائل تحته غير ضياع الوقت سدى فهم لا يهتمون بأدائها ويعملون على الاستزادة في العلوم والأخذ بوسائل الصناعات والتقدم من المدنية الحديثة، ولا شك أنهم أشقياء بهذه الأفكار الفاسدة وغير موفقين.

يظن ظانون أن المساجد أصبحت أكثر من حاجة الناس، وأن انتفاع الأمة من هذه الجوامع المتناثرة في شوارع المدن وأزقة القرى ليس بذي شأن كبير، ويظنون أن الدعوة إلى التردد على المساجد دعوة إلى التكاسل والتواكل. وينسى هؤلاء أن المساجد مبعث سكينة روحية وفيها من هدآت الخشوع والجلال الديني ما يهيئ للتفكر والذكر ملجأ للنفوس إذا ساورها هلع الحياة واضطراباتها وإنا لفي زمن تصارعت فيه

(٢) المرحوم الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي في خطابه لمؤتمر الأديان المنعقد بلندن سنة ١٩٣٦ ونشرته الأهرام بالعدد ١٨٥٣٣

(١) هنري برجسون كتاب "منبعا الدين والأخلاق"

المبادئ التي يقوم عليها السلوك الإنساني وتصارعت النظم التي توجه الحياة الاجتماعية حتى لكاد يتزلزل من أركان الحضارة البشرية، وإنا لنخشى أن تتردى الأجيال الناشئة في هاوية من الشك والقلق والجموح ليس لها قرار. فحق لكل مصلح أن يهيب بالشباب أن يتحصنوا من هذا البلاء الداهم بسويعات يقضونها في بيوت الله للذكر والعبادة؛ وتفكر ساعة خير من قيام ليلة كما يقول الحسن البصري، وعن فضيل بن عياض: (الذكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك) ويقول سفيان بن عينيه (التفكر مفتاح للرحمة ألا ترى أنه يتفكر فيتوب) وقيل لإبراهيم بن أدهم (إنك تطيل الفكرة قال الفكر مخ العبادة) أما الذكر فإن الله عز وجل يقول (ألا بذكر الله تطمئن القلوب)[٢]

أما المدنية الحديثة فإنها تؤله المادة وتعبدها، فإلى الآلات الصناعية تتجه الأنظار وإليها ترفع أكف الدعاء، وإياها يعبد أرباب الأموال ولها يستعبد العمال. ومنها تشتق المبادئ السياسية والتعاليم الأخلاقية، وبقوتها تستعبد الأمم وتثار الحروب وتطعن في الصميم الأخوة الإنسانية مما نسميه الآن ديمقراطية وفاشية واشتراكية وشيوعية مؤسسة عليها وناظرة إليها. حتى أن النظريات الاقتصادية مشتقة منها ومتفرعة عنها، والإنسان يشقى بهذه الآلات لتأليهها، وكانت ستكون نعمة عظمى ومصدر سعادة كبرى لو نظر إليها في ضوء وحدانية الله

(٢) الأستاذ الأكبر المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق في خطبته في افتتاح مسجد المنتزه بالإسكندرية بين يدي جلالة الملك فاروق حينما كان وزيراً للأوقاف في جمادي الأولى سنة ١٣٦٤

وتأليه الله وحده وما تستلزمه من أخوة إنسانية[١]

والصوفية يحاولون الاتصال بالجناب الأقدس لمعرفة الأسرار الروحانية والكونية وينقلونها إلينا فلا يكاد الصوفي يهبط علينا حتى يشعر بالحاجة إلينا يعلمنا أن العالم الذي ندركه وإن كان حقيقياً فإنه ثمة عالم غيره لا يدرك بالبرهان العقلي بل هو يقيني يقين التجربة وهو يحس بالحقيقة تنحدر من منبعها فلا يستطيع أن يمنع نفسه عن نشرها فالتصوف حالة تشعر النفس فيها أو تعتقد إنها تشعر بأنها في حضرة الله أنيرت بنوره وهي حالة تسمو بالنفس الإنسانية إلى مستو آخر يضمن للنفس الأمن والطمأنينة ولو على صورة أسمى من ذي قبل فالتصوف عمل وخلق وحب[٢]

وبعض علماء النفس يقول: إن النفوس العالية مركبة عالمية متصلة الأسباب بسر الوجود الخفي التي تتوق الإنسانية لاجتلائه، فنحن نستعين بها على فهم أسرار نفوسنا واستجلاء غوامضنا ومعرفة خفايا الكون التي تحف بنا من كل جانب وكأننا نقترب بها على فهم الكون غير المحدود ونتأمل الأفلاك السابحة والأكوان الصغيرة المليئة بالأسرار والغرائب التي ينطوي فيها العالم الأكبر، وقد قيل في صاحب هذه النفس:

وتـــزعم أنـــك جـــرم صـــغير وفيـك انطـوى العـالم الأكبـر

(١) مجلة الثقافة

(٢) هنري برجسون في كتاب منبعا الدين والأخلاق

وأما محبة الله

ولعمر الإنصاف أن هذا مقام يجب أن تتكسر فيه الأقلام وتخرس الألسن فلن تطبق شرح نعمة واحدة من نعم الله (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) أحس بهذه العظمة المدهشة وذلك الإنعام الفائض على كل الوجود ذلك الرجل العظيم صاحب النفس المطلقة من القيود الفيلسوف العالم الفرنسي (لينيه) الذي كان يدعوه وجدانه فيجيبه ويناجيه شعوره الحي فلا يتغافل عنه وهو عندي مؤمن حقاً لا محالة حيث قال: "إن الله الأزلي الكبير، العالم بكل شيء قد تجلى لي ببدائع صنائعه حتى صرت مندهشاً مبهوتاً. فأي قدرة، وأي حكمة وأي إبداع أودعه مصنوعات يده لا فرق بين أصغر الأشياء وأكبرها. إن المنافع التي نستمدها من هذه الكائنات تنبئ بواسع حكمته، وكذلك حفظها من التلاشي وتجددها يشعر بجلاله وعظمته"[1]

فما هو إذن التصوف ومن هم الصوفية، ومن هو الصوفي، ومن هو الولي، وما هي الكرامات؟ التصوف هو الكمال في الدين والكمال في المعرفة[2]

التصوف مبني على الإيمان والصدق والإخلاص فهو العلم الذي يصور المثل الخلقي الإسلامي الأعلى[3]، وفي مختصر ابن عبد البر المتوفى سنة ٤٦٣هـ قال سفيان: "كتب مكحول أنك امرؤ قد أصبت

---

(١) الأستاذ المرحوم الشيخ يوسف الدجوي بالعدد الرابع من مجلة الأزهر سنة ١٣٥٦هـ

(٢) الأستاذ الأكبر المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق

(٣) المصدر نفسه بجريدة السياسة الأسبوعية ١٨ ربيع الأول ١٣٥٦

فيما ظهر من علم الإسلام شرفاً، فاطلب بما بطن من علم الإسلام محبة وزلفى"

ولما اتسعت أنظار الباحثين في العلوم الدينية ودقت هممهم إلى الكلام في أصول الدين بعقولهم ولطفت أذواق المراقبين منهم لمعاني العبادات وحركات القلوب. أخذ التصوف يتسامى إلى نظرية في المعرفة وسبيل الوصول إليها وهذه النظرية على ما بينه الغزالي في الأحياء هي السعادة التي وعد الله بها المتقين هي المعرفة والتوحيد. وأما العبادات فإنها مراد الطاعات كلها، وأعمال الجوارح هي تصفية القلب وتزكيته وجلاؤه[٤]

كانت الجماعة الإسلامية الأولى تقوم في المدينة على هيئة أخوة روحية بين المؤمنين حلت محل القبيلة والأسرة، والتصوف الإسلامي هو استعادة هذه الحياة المشتركة لأصحاب خيرهم المشترك وصلواتهم الجماعية يسلكان بالجماعة كلها إلى الله بوسيلة الحب لاقتناص المعرفة بالاقتداء بمحمد صلى الله عليه وسلم وكذلك ببقية الأنبياء صلوات الله عليهم[١]

هذه معان خاصة، وأطلق بعض العلماء على التصوف معنى عاما فقال:

"التصوف هو كل عاطفة صادقة مثبتة الأواصر قوية الأصول لا يساورها ضعف ولا يطمع فيها ارتياب وهو خليق بأن يصحب كل نزعة

---

(٤) الأستاذ الأكبر المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق في تعليقه على مادة تصوف بدائرة المعارف الإسلامية الترجمة العربية

(١) الدكتور عبد الرحمن بدوي في كتابه الإنسانية والوجودية

شريفة من النزعات الوجدانية التي تكمل الصدق والأخلاق بحيث لا تملك نفس أن تتصرف عما آمنت به واطمأنت له من عالم المعاني؛ ويتمثل في صور كثيرة. فيكون في الحب ويكون في الولاء. ويكون في السياسة متى قامت على مبادئ تتصل بالروح والوجدان(٢)

والمتأمل في حياة الصوفية يلاحظ أنها تنطوي في العادة على معنيين رئيسيين:

أحدهما: معنى عملي يتمثل فيه السالك نفسه من ألوان الرياضات وضروب المجاهدات. والمرآة التي تنعكس على صفحتها هذا المعنى: هي المقامات التي تترقى فيها النفس مقاماً بعد مقام ترقيا، غايتها في النهاية الوصول إلى درجة العرفان.

وثانيهما: معنى ذوقي روحي هو هذا الذي يحصل في النفس ثمرة لرياضتها ومجاهدتها فإذا هي تصفو شيئاً فشيئاً وتخلص من شوائبها رويداً رويداً فإذا هي تستحيل آخر الأمر إلى روح صافية فتية كما كانت قبل أن تهبط من عالم الأمر إلى هذا العالم السفلي بما فيه من أكدار المادة وعوامل الفساد. والمرآة التي تنعكس على صفحتها هذا المعنى الذوقي الروحي: هي ما يعرض للنفس من أحوال ترد عليها حينا وتتحول عنها حيناً آخر وما تزال هذه الأحوال بين إقبال على النفس وإدبار عنها حتى تستقر آخر الأمر حال يغلب عليها ويوجه حياتها الروحية فإذا هي

(٢) الدكتور زكي مبارك في كتابه التصوف الإسلامي وصلته بالأدب والأخلاق

تشرق بنور الحق وتعمى عن رؤية الخلق. هنالك تكون النفس قد وصلت إلى أسمى الأحوال وتكون قد شاهدت بعيني البصيرة كل ما الوجود من آيات الحق والخير والجمال[1]

أما صفات الصوفية: فكما وصفها الكلابازي المتوفى سنة ٣٨٠هـ في كتابه "التعرف لمذهب التصوف"، حيث قال فيهم:

"جعل فيهم صفوة واختياراً ونجباء وأبراراً، سبقت لهم من الله الحسنى وألزمهم كلمة التقوى وعزفت بنفوسهم عن الدنيا، صدقت مجاهداتهم فنالوا علوم الدراسة؛ وخلصت عليها معاملاتهم فمنحوا علوم الوراثة؛ وصفت سرائرهم فأكرموا بصدق الفراسة. ثبتت أقدامهم وزكت نفوسهم وأنارت أعلامهم وجالت حول العرش أسرارهم. فهم أجسام روحانيون وفي الأرض سماويون، وفي الخلق ربانيون. سكوت نظار غيب حضار. ملوك تحت أطمار. أنزاع قبائل وأصحاب سرائر وأنوار دلائل. آذانهم واعية؛ وأسرارهم صافية ونفوسهم صوفية نورية صفية؛ ودائع الله بين خليقته وصفوته في بريته".

من هو الصوفي؟

والآن ما هي هذه الصفات التي اكتملت لزهاد المسلمين التي استحقوا من أجلها أن يسموا صوفية حقاً؟ هل نلتمس هذه الصفات في

(١) الدكتور محمد مصطفى حلمي "ابن الفارض والحب الإلهي"

طريقة القوم ومسلكهم إلى غاياتهم أم نلتمسها من الحالة النفسية الخاضعة في أسمائها واتفقوا بالرغم من تباين مللهم ونحلهم في وصفها وفي أنها لازمة للطريقة لزوم النتيجة للمقدمات؟.. أم في الغاية يسعى الصوفية جاهدين في الوصول إليها؟ أم في هذه الصفات مجتمعة؟

الحق أن التصوف لا يكمل إلا بهذه العناصر الثلاثة مجتمعة غاية معينة، وحالة نفسية ينكشف فيها للصوفي تحقيق هذه الغاية، وطريقة خاصة يسلكها لكي تورثه أو تنتج إليه هذه الحالة النفسية؛ فإذا وقف شخص عند الطريقة ولم يصل إلى غايته لم يكن صوفياً، وذلك كالزهاد والذين يعبدون الزهد غاية في ذاته، ولا يطمعون في الوصول إلى شيء آخر غير الطريقة.. وإذا حقق شخص في نفسه تلك الحالة النفسية الخاصة بطريق آخر غير التصوف المحدود بشروط وقواعد وأعمال لم يكن صوفياً وذلك كالمحبين والوالهين وكعباد الطبيعة أو عشاق الموسيقى أو أي نوع من أنواع الجمال والفن وكبعض المشعوذين فإن هؤلاء قد يكون لهم أحوال أشبه بأحوال الصوفية وليسوا منهم في قليل أو كثير.

يتضح لك إذا أنه لا بد من اجتماع هذه الثلاثة في حياة الصوفي لكي يكون صوفياً حقاً كما يتبين أنه لا غنى لإحدى هذه النواحي عن الأخرى، أما الطريقة فهي رياضة النفس ومجاهداتها وقمع لذاتها ومحاسبة الضمير وتصفية القلب من الكدرات، ومن كل ما سوى الله.

أما الحالة النفسية فهي التي يسميها الصوفية حالة الجذب أو حالة

الإشراق أما الغاية فهي الوصول إلى الله[1] ومن أحسن ما روي عن صفة العارف ما قيل فيه: "العارف هش باش، وهو فرحان بالحق وبكل شيء فإنه يرى الحق فيه، العارف شجاع كيف لا وهو بمعزل عن تقية الموت، وجواد وكيف ولا وهو بمعزل عن حب الدنيا، وصريح وكيف لا وهو بمعزل عن محبة الباطل، وصفاح وكيف لا وهو يرى نفسه أكبر من أن يحرجها ذلة، ونسَّاء للأحقاد، وكيف لا وذكره مشغول بالحق[2]

من هو الولي؟

الولاية، مادة ولي، فيما يرجحه أئمة المفسرين كالطبري والزمخشري والرازي. تولى على معنى القرب فولى كل شيء القريب منه، والقرب من الله بالمكان والجهة محال؛ فولي الله من كان قريباً منه بالصفة التي وصفها أي الإيمان والتقوى، وإذا كان العبد قريباً من حضرة الله بسبب كثرة طاعاته وكثرة إخلاصه، وكان الرب قريباً منه برحمته وفضله وإحسانه فهنالك حصلت الولاية.

ثم تطور معنى الولي تبعاً لما حدث في الملة من المذاهب المختلفة وتبعاً لتطور التصوف نفسه؛ فالولي عن المتكلمين: هو من يكون آتياً بالاعتقاد الصحيح المبني على الدليل، ويكون آتياً بالأعمال الصالحة على وفق ما أتت به الشريعة وإليه الإشارة بقوله تعالى (الذين

---

(١) الدكتور أبو العلا عفيفي مجلة الثقافة عدد ١٦ سنة ١٩٣٩.

(٢) ابن سينا في الإشارات

آمنوا وكانوا يتقون) ذلك أن الإيمان مبني على جميع الاعتقاد والعمل ومقام التقوى: هو أن يتقي العبد كل ما نهى الله عنه.

والولي عند الصوفية: كما في الرسالة القشيرية: له معنيان. أحدهما: أن يكون فعيلاً بمعنى مقبول كقتيل وجريح بمعنى مقتول ومجروح، وهو الذي يتولى الحق سبحانه حفظه وحراسته فلا يكله إلى نفسه لحظة بل يتولى رعايته على التوالي ويديم الحق سبحانه توفيقه إلى الطاعات.

ثانيهما: أن يكون فعيلاً مبالغة من الفاعل، كالعليم والقدير، فيكون من يتولى عبادة الله وطاعته، فطاعاته تجري على التوالي من غير أن يتخللها معصية فيكون ولياً بمعنى توالي طاعات ربه. وولي بمعنى توالي فضل ربه عليه.

وكلا المعنيين: يجب تحقيقه حتى يكون الولي ولياً فيجب أن يتحقق قيامه بحقوق الله تعالى على الاستقصاء والاستبقاء ويتحقق دوام حفظ الله تعالى إياه في السراء والضراء.

فالولاية عندهم: عبارة عن دوام الاشتغال بالله والتقرب إليه بطاعته، وإذا كان العبد بهذه الحالة فلا يخاف من شيء ولا يحزن من شيء لأن مقام الولاية والمعرفة يمنعه أن يخاف أو أن يحزن.

والولي عندهم: هو الواصل إلى مرتبة العرفان عن الطريقة الموصلة إلى تلك المرتبة في رأيهم وهو العارف أيضاً.

والواصل: إلى درجة العرفان تنكشف له الحجب ويشهد من الله ما لا يشهده سواه وتظهر على يديه الكرامة التي هو أمر خارق للعادة[١]

وفي لطائف المنن لابن عطاء الله الإسكندري: قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه من أجل مواهب الله الرضاء بمواقع القضاء. والصبر عند نزول البلاء. والتوكل على الله تعالى عند الشدائد، والرجوع إليه عند النوائب. فمن خرجت له هذه الأربع من خزائن الأعمال على بساط المجاهدة ومتابعة السنة والاقتداء بالأئمة فقد صحت ولايته لله ولرسوله وللمؤمنين (ومن يتولى الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون).

ومن خرجت له من خزائن المنن على بساط المحبة فقد تمت ولايته لله تعالى لقوله (وهو يتولى الصالحين) ففرق بين الولايتين. فعبد يتولى الله؛ وعبد يتولاه الله فهنا ولايتان صغرى وكبرى.

فولايتك الله تعالى خرجت من المجاهدة.

وولايتك الله ورسوله خرجت من متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم وسنته. وولايتك المؤمنين. خرجت من الاقتداء بالأئمة. فاعلم ذلك. وإن شئت قلت هما ولايتان: ولاية الإيمان، وولاية الإيقان، وإن شئت قلت هما ولايتان: ولاية الصادقين وولاية الصديقين.

---

(١) المرحوم الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق في دائرة المعارف الإسلامية الترجمة العربية.

وإذ قد عرفت هذا فاعلم أنهما ولايتان: ولي يفنى عن كل شيء، فلا يشهد مع الله تعالى شيئا، وولي يبقى في كل شيء فيشهد الله في كل شيء.

وإن شئت قلت هما ولايتان. ولاية دليل وبرهان، وولاية شهود وعيان.

كرامات الأولياء

إن أكثر الأشعرية أجازوا للصالحين على سبيل كرامة الله لهم. اختراع الأجسام وقلب الأعيان وجميع إحالة الطبائع وكل معجزة للأنبياء، وقالوا أنه لا فرق بين آيات الأنبياء وكرامات الأولياء. إلا بالتحدي مع دعوى النبوة، فإن النبي يتحدى الناس أن يأتوا بمثل ما جاء به.

ويقول أكثر الصوفية: إن ظهور الكرامات جائز بل واقع وهي أمور ناقضة للعادة غير مقترنة بدعوى النبوة، وهي عون للولي على طاعته ومقوية ليقينه؛ وحاصلة له على حسن استقامته ودالة على صدق دعواه للولاية. إن ادعاها لحاجة وشهدت له به الشريعة، ويقولون أن الكرامة تغاير المعجزة في ثلاثة وجوه. أولها: أن الأنبياء متعبدون بإظهار معجزاتهم للخلق والاحتجاج بها على من يدعونه إلى الله تعالى فمتى كتموا ذلك فقد خالفوا الله تعالى، والأولياء متعبدون بكتمان كراماتهم عن الخلق فإذا أظهروا شيئاً منها لاتخاذ الأغراض الشخصية والمنافع والجاه والشهرة، فقد خالفوا الله وعصوه.

ثانيها: أن الأنبياء يحتجون بمعجزاتهم على المشركين لأن قلوبهم

قاسية والأولياء يحتجون بالكرامات على نفوسهم حتى تطمئن وتؤمن ولا تضطرب ولا تجزع عند فوات الرزق. لأن النفس أمارة بالسوء مجبولة على الشك، والنفس لا تطمئن إلا برؤية العين، وهذا إبراهيم عليه السلام قال: "رب أرني كيف تحيي الموتى. قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي".

وثالثها: أن الأنبياء كلما زيدت معجزاتهم يكون أتم لمعانيهم وفضلهم والأولياء كلما زيدت كراماتهم يكون وجلهم أكثر حذراً أن يكون ذلك من الاستدراج لهم، وأن يكون سبباً في سقوط منزلتهم عند الله.

ويتفق بعض العلماء والمتكلمون والصوفية، على أن الأولياء لهم كرامات شبه إجابة الدعاء والإخبار بمجيء زيد من سفر وعافيته من مرض: فأما جنس ما هو معجزة للأنبياء كإحياء الموتى وحصول إنسان لا من أبوين وتسبيح الحصى فلا يكون للأولياء.

أما المعتزلة وبعض الأشعرية، فينكرون وقوع كرامات للأولياء وجوازها.

وقالت طائفة يمنع جواز الخوارق للأنبياء والأولياء على السواء.

قال المجوزون للكرامات: إن الكرامة جائزة، إذ ليس يلزم فرض وقوعها محال؛ إذ هي أمر يتصور في العقل حصوله من غير أن يؤدي إلى رفع أصل من الأصول؛ فواجب وصفه سبحانه بالقدرة على إيجاده للولي، وإذا وجب كونه مقدور الله تعالى فلا شيء يمنع جواز حصوله.

وقالوا: إن انخراق العادة ليس مما ينكره المتكلمون لأنه جائز مع القول بالفاعل المختار ولا مما ينكره الحكماء، لأنهم يقولون بأن للنفوس الزكية قوى ربما تؤثر في أكثر الأجسام التي في عالم الكون والفساد[1]

ويروي بن عطاء الله الإسكندري في لطائف المنن عن الشيخ أبي الحسن الشاذلي في الكرامات أنه قال: فائدة الكرامة تعريف اليقين بالله بالعلم والقدرة والصفات الأزلية يجمع لا يفترق، وأمر لا يتعدد كأنها صفة واحدة قائمة بذات الواحد يستوي فيه من تعرف الله إليه بنوره كمن تعرف إلى الله بعقله؛ ولأجل أنها تثبت لمن أظهرت له؛ ربما وجدها أهل البدايات في بداياتهم وفقدها أهل النهايات من نهاياتهم. إذ ما كان عليه أهل النهايات من الرسوخ في اليقين والقوة والتمكين لا يحتاجون معه إلى تثبيت، وهكذا كان السلف رضي الله عنهم لم يحوجهم الحق سبحانه إلى وجود الكرامات الحية لما أعطاهم من المعارف الغيبية والعلوم الإشهادية، فلا يحتاج جبل إلى مرساة. فالكرامة دافعة لزلزلة الشك في المعنى ومعرفة بفضل الله فيمن أظهرت عليه وشاهدة له بالاستقامة مع الله.

وقال الشيخ أبو الحسن. إنما هما كرامتان: كرامة الإيمان بمزيد الإيقان وشهود العيان، وكرامة العمل على الاقتداء والمتابعة ومجانبة الدعاوي والمخادعة. فمن أعطيهما ثم جعل يشتاق إلى غيرها فهو عبد مفتر كذاب أو ذو خطأ في العلم والعمل بالصواب، كمن أكرم بشهود الملك على نعت الرضى فجعل يشتاق إلى الرضى، وكل كرامة لا

---

(١) الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق دائرة المعارف الإسلامية الترجمة العربية

يصحبها الرضى عن الله ومن الله فصاحبها مستدرج مغرور وناقص؛ أو هالك مثبور.

الفرق بين الأولياء وغيرهم في الكرامات[1]

إن هناك فرقا بين المؤمن الكامل الذي يتوجه إلى معرفة الله تعالى غارقاً في توحيده وإجلاله ذاهلاً عن كل شيء في الوجود، وبين ذلك الذي تغيبه المكونات فتلتفت إليها مرآة قلبه فيعرف ما سيحدث فيها من الأمور المستقبلة بمقتضى ما لجوهر نفسه من الصفاء؛ فإن النفس الصافية بمنزلة البلور التي ينتقش عليها كل ما يقابلها عند التوجه إليه. والأنبياء والأولياء يأبون أن ينتقشوا على ألواح قلوبهم شيئاً من تلك الأمور الكونية وإن كانت من علم الغيب ويترفعون في أن يتوجهوا إليها أو يدنسوا نفوسهم الزكية الطاهرة بها، لأن الالتفات إليها يحط من عوالي الهمم، وإن كان أمراً كبيراً في نفسه عند غيرهم، ولكنه صغير بالنسبة إلى درجاتهم وعلو مقاماتهم.

فأجلاء الأولياء يرون من أكبر العار النظر إلى الأغيار والركون إلى الآثار، وإن طلب الكرامات والفرح بها دلائل سقوط الهمة وضعف المحبة والبعد عن الحضرة وعدم خلوص العبودية والمحب لا يرضى بغير محبوبه بديلاً، بل يرى كل شيء يشغله عن شهود جماله وجلاله لا يستحق النظر إليه، فقلبه غارق في محبة الله في جميع أوقاته وحركاته

(١) الشيخ يوسف الدجوي (كتاب سبيل السعادة)

وسكناته وهو لا يتحرك إلا لطاعته ولا يتفكر إلا في مرضاته، لذلك فقد خرج أمثال هؤلاء من بقايا نفوسهم وحظوظها وشهواتها، والتوجه إلى معرفة الحوادث المستقبلة والشئون الغامضة من أعمال النفس ورجوع إلى شهوات النفوس والاشتغال بالأكوان

قال لي حسن كل شيء تجلى ... بي تملي فقلت قصدي سواكا

وحد القلب حبه فالتفاتي ... لك شرك ولا أرى إلا شراكا

فتوى شرعية في كرامات الأولياء(١)

رقم ٤٣٦ من السجل رقم ٨

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد بخيت المطيعي مفتي الديار المصرية الأسبق رحمه الله تعالى، والسجل المذكور طرف نجله سعادة أحمد مختار بخيت بك.

السؤال:- سأل حضرة عبد الجواد سيد إبراهيم المدرس بدرب الجماميز بالقاهرة حارة السادات رقم ٤ في ١٩٤٠/٧/٢٤م.

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد بخيت المطيعي (رحمه الله تعالى) بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله

(١) مجلة عالم الروح عدد سبتمبر سنة ١٩٤٨

وصحبه أجمعين وبعد: فقد حضر لدينا بعض المتمشيخين وجرى بيننا حديث في موضوع؛ هل الأولياء لهم تصريف فيما يجرى في الكون وفي الوساطة بين الله وعباده في قضاء حاجاتهم؟ فأقر ذلك الأستاذ بدعوى من مقتضيات كراماتهم وخالفته في ذلك مستدلاً بأن هذا الرأي يخالف صريح القرآن ونصوص الشرع فإن الله تعالى يقول (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب) ومعنى قربه من السائل أنه لا يحتاج في إجابة دعواه إلى وساطة أحد من خلقه، وإن ادعاء أن للأولياء تصريفاً في الكون يقتضي أنهم شركاؤه فيما يقدره في خلقه والله تعالى يقول: (ألا له الخلق والأمر) إلى غير ذلك مما يقتضيه ظاهر النصوص الشرعية فما رأى فضيلتكم في هذا الموضوع؟ نرجو إيضاح هذا الموضوع الخطير مدعمين رأيكم فيه بالأدلة والبراهين لنستنير فيه بثاقب رأيكم وغزير علمكم جعلكم الله سراجاً منيراً – هذا وقد زاد الأستاذ على قوله السابق أن في القطر المصري سبعة لهم التصريف وعد منهم السيد البدوي والفرغل وإمامنا الشافعي والسيدة نفيسة فهل لهذا أصل في الدين؟

الجواب: الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده. اطلعنا على هذا السؤال ونقول: اعلم أن الله قال: "ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم)، وقال تعالى:(الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور) فأنت ترى أن الله تعالى قد بين لنا أن له أولياء وأن هؤلاء الأولياء هم الذين آمنوا وكانوا يتقون وبين حالهم في الدنيا فقال (لا خوف عليهم ولا هم

يحزنون) أي أنهم بلغ من أمرهم في معاملاتهم وكافة شئونهم أن شيئاً مما قدر لهم لا يفوتهم ولا يحزنون على شيء قد فاتهم لأنهم يعلمون حق العلم أن كل ما قدره الله لهم وعلم أن يكون لهم لا بد أن يصل إليهم فلا يفوتهم منه شيء فهم مصدقون بالقضاء والقدر: فإن فاته شيء مما يطلبه لا يحزن على فوته لاعتقاده أنه لم يقدر له ولو قدر له ما فاته كما أن ما وصل إليه إنما وصل بقضاء الله وقدره فهو واثق بالله تمام الوثوق ولذلك وعدهم بأن لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ووصفهم أيضاً بأنه يخرجهم من الظلمات إلى النور بسبب إيمانهم، كما يشعر بذلك تعليق الحكم بإخراجهم بالإيمان الذي استفيد من الموصول والصلة.

فالولي شرعاً بمقتضى هاتين الآيتين هو من يتولى الله تعالى ويتخذه مولى له فيؤمن به ويتقيه ويمتثل أوامره ويجتنب نواهيه، ويتولاه الله تعالى بأن يوفقه فيخرجه من ظلمات الجهل إلى نور العلم فكل مؤمن له قسط من الولاية على قدر قسطه من إشراق نور الإيمان في قلبه وتقواه أو شرح صدره للإيمان والإسلام، وإذن فكل مؤمن ولي وإنما تختلف درجات الولاية على حسب اختلاف درجات التقوى. فمن المؤمنين من يتقي الخلود في النار بأن يكون مؤمناً عاصياً، ومنهم من يتقي دخول النار بأن يكون مؤمناً مطيعاً لله في كل أعماله مراقباً تعالى في سره وجهره معتقداً تمام الاعتقاد أن الله تعالى معه أينما كان وأنه لا يكون في شأن ولا يعمل من عمل إلا والله معه حين يفيض في الشأن أو العمل راجياً ثواب الله تعالى خائفاً من عقابه.

وقد عرَّف علماء الكلام الولي بأنه هو العارف بالله تعالى وصفاته، المواظب على الطاعات والمجتنب للمعاصي المعرض عن الانهماك في اللذات والشهوات فهو القائم بحقوق الله وحقوق العباد حسب الإمكان. ولذلك قال ابن عبد السلام: على الجوهرة في الولي إنه هو من تولى الله تعالى أمره فلم يكله إلى نفسه ولا إلى غيره لحظة أو الذي يتولى عبادة الله تعالى وطاعته فعبادته تجري على التوالي من غير أن يتخللها عصيان، وكلا المعنيين واجب تحققه حتى يكون الولي ولياً عندنا في نفس الأمر هو هذا الولي بالمعنى الأخص وهو المراد من قول صاحب الجوهرة

واثبتن للأولياء الكرامة ومن نفاها فانبذن كلامه

فهو الولي الذي تظهر على يديه الكرامة – وأما الولي بالمعنى الأعم فهو الذي يشمل كل مؤمن ويتحقق فيه المعنيان متى تحقق فيه الإيمان المنجي من الخلود في النار سواء انضم معه الإيمان والتقوى المنجيان من الدخول في النار أم لا – بخلاف الولي بالمعنى الأخص الذي تقدم.

وقال علماء الكلام: يجب الاعتقاد بأن للأولياء كرامة حال حياتهم في الدنيا وبعد موتهم يوم القيامة، والمراد أنه يجب على كل مكلف أن يعتقد الكرامة أي حقيقتها بمعنى جوازها ووقوعها لهم كما ذهب إليه جمهور أهل السنة ومعنى الكرامة أمر خارق للعادة عادة البشر غير مقرون بدعوى النبوة ولا هو مقدمة لها يظهر على يد عبد ظاهر صلاح ملتزم لمتابعة نبي كلف بشريعة مصحوب بصحيح الاعتقاد والعمل

الصالح علم بها أو لم يعلم فتمتاز بعدم الاقتران المذكور عن المعجزة فلا تلتبس بها وينفي مقدمتها عن الإرهاص وما يظهر على يد الأنبياء قبل النبوة كتظليل الغمام لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم وبظهور الصلاح عما يسمى معونة كما يظهر على يد بعض العوام المسلمين تخليصاً لهم من المحن والمكار وبالتزام متابعة نبي... إلخ عن الخوارق المؤكدة لكذب الكاذبين وتسمى إهانة– كبصق مسيلمة الكذاب في بئر عذبة الماء لتزداد حلاوة فصارت ملحاً أجاجا وبالمصحوبية بصحيح الاعتقاد إلخ عن الاستدراج كما خرج السحر من جهات عدة – والدليل على حقية الكرامة كما قال الحموي في كتاب (نفحات القرب والاتصال) نقلاً عن سعد الدين التفتازاني في شرح العقائد النفسية ما تواتر عن كثير من الصحابة ومن بعدهم لا يمكن إنكاره خصوصاً الأمر المشترك وإن التفاصيل آحادا وأيضاً الكتاب ناطق بظهورها من مريم – يعني على القول بأنها ولية لا نبية، وهو الصحيح، ومن صاحب سليمان صلوات الله وسلامه عليه هو كذا قصة أهل الكهف، وفي رسالة السجاعي في إثبات كرامة الأولياء ما نصه:

دليل الوقوع ما جاء في الكتاب العزيز من قصة مريم عليها السلام وولادتها عيسى عليه وعلى نبينا وعلى سائر الأنبياء الصلاة والسلام من غير زوج مع كفالة زكريا لها عليه الصلاة والسلام؛ وكان لا يدخل عليها غيره وإذا خرج من عندها أغلق عليها سبعة أبواب، وكان يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف، على أن ما قصه الله تعالى علينا من قصة مريم قاطع في ظهور الكرامة على يدها فقد قال الله

تعالى في سورة مريم إكراماً لها (واذكر في الكتاب مريم) إلى آخر ما اشتملت عليه الآيات من خوارق العادات مما لا يستطيع أحد إنكاره، وهي من الأولياء على الصحيح.

وأما الدليل على جواز وقوع الكرامات للأولياء بعد مماتهم فهو ما نقله الحافظ عبد العظيم المنذري في كتاب الترغيب والترهيب حيث قال عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ضرب بعض الصحابة خباءه على قبر وهو لا يحسب أنه قبر فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها فقال النبي صلى الله عليه وسلم هي المانعة هي المنجية من عذاب القبر رواه الترمذي – وقال حديث غريب ا.هـ من الحموي. ومثله في مشكاة المصابيح – وقد راجعنا الترمذي فوجدنا هذا الحديث فيه في نسخة مطبوعة طبع بولاق وقال إنه حديث حسن غريب. وقال شارح مشكاة المصابيح نقلاً عن ابن ملك: فيه دليل على أن بعض الأموات يصدر عنه ما يصدر عن الأحياء ا.هـ.

وقال الحموي عقب إيراده هذا الحديث في كتابه المذكور آنفا: وهذا دليل على وقوع الكرامة بعد الموت بتقريره صلى الله عليه وسلم حيث أقر قراءة الميت سورة الملك وقال هي المانعة هي المنجية من عذاب القبر، وتقريره صلى الله عليه وسلم دليل شرعي كما تقرر في محله من كتب الأصول ا.هـ

وبناء على ما ذكر قال العلامة التفتازاني كما نقله الحموي كتابه:

إن ما يظهر من الخوارق بعد موت الأنبياء يكون كرامة لهم لا معجزة فمن أطلق لفظ المعجزة فقد تسمح بخلاف كرامة الولي إذ لم تعتبر في حقيقتها دعوى الولاية وقصد إظهار الكرامة بل الولي مظهر لها إذ هي كما تقدم الأمر الخارق للعادة وهو الفعل الذي لا يدخل تحت كسب العبد واختياره بل هو حاصل بفعل الله والولي مظهر له - أي محل لظهوره، وفي هذا الأمر لا فرق بين حياة الولي وموته ا.هـ.

ومن ذلك تعلم أن ما يظهر من التصرفات على يد الأولياء لا يخالف صريح القرآن لأن هذا التصرف الذي ينسب للأولياء هو نوع من الكرامات، وهو فعل الله وخلقه يظهره الله إكراماً لهم وتارة بإلهام وتارة بمنام، وتارة بدعائهم وتارة بفعلهم واختيارهم وتارة بغير اختيار ولا قصد ولا شعور منهم بل قد يحصل من الصبي المميز وتارة بالتوسل إلى الله تعالى بهم في حياتهم وبعد مماتهم مما هو محكي في القدرة الإلهية، ولا يقصد الناس بسؤالهم ذلك قبل الموت وبعده نسبتهم إلى الخلق والإيجاد والاستقلال بالأفعال فإن هذا لا يقصده مسلم ولا يخطر ببال أحد من العوام فضلاً عن غيرهم - فصرف الكلام إليه ومنعه من باب التلبيس في الدين والتهويش على عوام الموحدين فلا يظن بمسلم بل ولا بعاقل توهم ذلك فضلاً عن اعتقاده وكيف بالكفر أو بمخالفة القرآن على من اعتقد ثبوت التصرف لهم في حياتهم وبعد مماتهم حيث كان مرجع ذلك كله إلى قدرة الله تعالى خلقاً وإيجاداً إلى آخر ما أطال به الشيخ الحموي في كتابه (نفحات القرب والاتصال) المطبوع تالياً لشفاء السقام للإمام السبكي في المطبعة الأميرية سنة ١٣١٨هـ فما قاله ذلك

الأستاذ لحضرة السائل حق – وأما ما زاده أخيراً بقوله: إن في القطر المصري سبعة إلى آخر ما قال فالتصريف الذي ينسب لهؤلاء السبعة هو عبارة إكرام الله تعالى لهم وإظهار خارق العادات لمن يتوسل بواحد منهم في أي شيء من الأشياء التي تكون كرامة للولي وليس هذا التوسل ممنوعاً أصلاً لما علمت مما تقدم من أن التوسل بالولي إنما يطلب من الله إجابة طلبه إكراماً لهذا الولي لاعتقاده أن هذا الولي أقرب منه إلى الله تعالى وهذا لا فرق فيه بين الحي والميت لما تقدم من أن الفاعل هو الله تعالى بل إنه بعد الموت أقرب منه حال الحياة الدنيوية لأن الروح بعد الممات غير مشغولة بتدبير شئون البدن – وهذا لا مانع من اعتقاده بناء على ما اشتهر عن هؤلاء السبعة من إكرام الله تعالى لهم بعد مماتهم كما يكرمهم حال حياتهم..

ولكن لا يجب اعتقاد أن فلاناً بعينه ولي وأن الله أظهر الكرامة على يده فلم يقل أحد من العلماء بوجوبه على أحد بحيث يكفر جاحده بل يجوز لكل مسلم بإجماع الأمة أن ينكر صدور أية كرامة كانت من أي شخص كان على التعيين ولا يكون بإنكاره هذا مخالفاً لشيء من أصول الدين ولا مائلاً عن سنة صحيحة ولا منحرفاً عن الصراط القويم فإنه لم يجيء في الشرع إلا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ولم يقل أحد بأنه جاء في الشرع زيادة على ذلك وأن فلاناً بعينه ولي الله: لكن من ينكر أن لله أولياء معينين فهذا هو المخالف للقرآن ولإجماع أهل السنة وأما التوسط في قضاء الحوائج فإليك ما كتبناه في مقدمة كتاب شفاء السقام للإمام السبكي وها هو نصه ص ١٤ (وكما جاز أن

يتوسط حي في قضاء مصلحة حي أو ميت والفعل لله وحده يجوز أن يتوسط روح ميت في قضاء مصلحة حي أو ميت والفعل لله وحده. والأرواح باقية على الحياة وأفعالها في عالم الملك إنما تظهر بواسطة البدن مادام حياً بالحياة الحيوانية فإذا مات وفقد الحياة الحيوانية بقيت نفسه وروحه على حياتها الملكوتية وتعلقت بحسمه تعلقاً آخر على وجه آخر يعلمه الله تعالى كما دل عليه نعيم القبر وعذابه فإذا كان الفعل في الواقع ونفس الأمر إنما هو للنفس والروح والجسم آلة يظهر بها الفعل والروح باقية خالدة ففعلها باق وتصرفها في أفعالها لا يتغير إلا بعدم ظهور الأفعال بواسطة البدن. فلا مانع عقلاً أن يكون بعض أرواح الأولياء والصالحين بعد موت الأجساد سبباً بدعائها وتوجهها إلى الله تعالى في قضاء حوائج بعض الزائرين لهم المتوسلين بهم بدون أن يكون لها مدخل في التأثير – وأي فرق بين التوسط بالأحياء في قضاء الحوائج مع الاعتقاد لا فاعل أي لا خالق للفعل غير الله وبين توسط أرواح الأموات في اعتقاد ذلك؟

والقول بأن ملوك الدنيا إنما يحتاجون إلى الوسائط لجواز الغفلة عليهم عن حوائج الناس بخلاف العليم الخبير سفسطة ظاهرة وتمويه على القول فإن الملك ووسائطه واسطة في قضاء حوائج الطالب من الله تعالى أن لا فاعل سواه فلو كان اتخاذ الواسطة شركاً بعد اعتقاد أن المؤثر هو الله تعالى وحده لكانت معاونة بعضنا بعضاً في قضاء المصالح شركاً – وهذا باطل بالضرورة لما يترتب عليه من بطلان الشرائع وفساد نظام العالم وعدم نسبة الأفعال الاختيارية إلى فاعليها فتبطل الحدود

والزواجر ويختل النظام فعليك بالإنصاف..

قال المناوي في شرح عينية ابن سينا في النفس: قال الناظم في كتاب زيارة القبور: تعلق النفس بالبدن عظيم جداً حتى أنها بعد المفارقة تشتاق وتلتفت إلى الأجزاء البدنية المدفونة فإذا زار إنسان قبر آخر وتغاضى عن العلائق الجسمانية والعلائق الطبيعية توجهت نفسه إلى العالم العقلي فتواجه نفسه نفس الميت وتحصل منها المقابلة كما في المرآتين فيرتسم فيها صورة عقلية بطريق الانعكاس ويحصل لها بذلك كمال ا.هـ)

وبعد أن نقلنا عن الغزالي وابن حجر ما يتعلق بذلك، قلنا فانظر إلى ما نقلنا من كلام حجة الإسلام الغزالي وكلام ابن حجر لتعلم أن ما كتبوه ونشروه في بعض الجرائد منسوباً إلى هذين الإمامين قد حرفه عن مواضعه الذين كتبوه (فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون). ألم يعلموا أن زيارة القبور تارة يقصد بها الموعظة بالأموات وهذه تعم جميع القبور والأموات، وتارة يقصد بها الاستمداد والتبرك بالمزور، وهذا يختص بالأنبياء والأولياء الصالحين؟ ألم يعلموا أن الإنسان يتأثر بتصوراته وأن نفسه تحت قهر سلطان الوهم؟ فكم من إنسان تحقق أن سيقتل لا محالة فتصور الموت واقعاً به فمات بسبب ذلك قبل أن يقتل – كذلك إذا زار الإنسان مشهد الحسين رضي الله تعالى عنه واعتقد أنه بمكان طاهر بين يدي ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم استولى عليه الخشوع والخضوع وامتلأ قلبه إخلاصاً فيدعو

الله مخلصاً موقناً بالإجابة خصوصاً إذا اعتقد أن روح الحسين رضي الله عنه تسأل الله تعالى إجابة دعاء زائره أليس ذلك سبباً في إجابة الدعاء وقضاء حوائج الزائرين المخلصين والله هو المؤثر؟

لا نرى مسلماً ولو عامياً يتوهم فضلاً عن أن يعتقد أن الله شريكاً في خلقه فمهما اعتقد الزائر أن المزور أطهر منه روحاً وأصفى نفساً بما أعطاه الله تعالى من الكمال الإنساني وإن كان العوام لا يستطيعون التعبير عما تكنه صدورهم من حسن العقيدة وكمال الإيمان (اللهم إيماناً كإيمان العجائز) فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً؟

صورة طبق الأصل من السجل رقم ٨ الموجود طرف سعادة أحمد مختار بخيت نجل فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد بخيت المطيعي رحمه الله تعالى

١٩٤٨/٨/٢٨ كتبها: عبد الحميد سعد جليلة من موظفي إدارة المحاكم الشرعية بوزارة العدل

(الدكتور زكي مبارك يهاجم التصوف ثم يعدل عنه)

قدم الدكتور زكي مبارك رسالته (الأخلاق عند الغزالي) سنة ١٩٢٤ فهاجم فيها الصوفية وبخاصة حجة الإسلام الغزالي، وما جاءت سنة ١٩٣١ حتى كان قد فهم من التصوف ما لم يكن قد فهمه من قبل فأعلن عدوله عن رأيه الأول بمجلة المعرفة في عدد أغسطس سنة

١٩٣١ والرجوع إلى الحق فضيلة فكتب في ذلك مقالاً قال فيه:

أكتب اليوم هذه الكلمة وأنا متردد حيران لأني مشفق على الإسلام من الإفراط في المقترحات يضاف إلى ذلك أن هذه الكلمة تخالف بعض الشيء ما جاء في كتابي (الأخلاق عند الغزالي) في مهاجمة غلاة الصوفية لاسيما وقد قررت هناك أن التصوف ليس مما تدعو إليه الشريعة الإسلامية وإنما هو مزيج بين عدة مذاهب هندية وفارسية ويونانية نقلت إلى المسلمين وصادفت هوى في نفوسهم؛ ويمكن الحكم بأن ما في الدعوة إلى طهارة القلوب والباطن وحب الخير وبغض الشر وما إلى ذلك مما يتعلق بخلوص النفس البشرية من خبيث الصفات يرجع في جوهره إلى روح الإسلام، أما ما يختص بقطع العلائق مع الناس والزهد في الحياة فهو بعيد عن روح الدين، لأن الإسلام دين فتح وسيطرة ويعد معتنقيه لأن يكونوا سادة بخلاف التصوف فإنه يلبس أصحابه روح العبيد.

وأنا اليوم أعتقد أن التصوف ضروري للإسلام، وقد صارحت بذلك محرر مجلة المعرفة الأستاذ عبد العزيز الإسلامبولي فصاح قائلاً (إذن زكي مبارك يرد على زكي مبارك) ويظهر أنه لم يكن يسرني أن أنقض ما قررته بالأمس لهذا عدت إلى كتاب الأخلاق عند الغزالي. فرأيت أني لم أسيء إلى التصوف وإنما هاجمت الشعوذة التي يحيا بها المخبولون على حساب الدين، وقال: "فلو تقدم اثنان من الدعاة في أمة وثنية وكان أحدهما يبشر بالإسلام الخالص وكان الثاني يبشر بالإسلام ممزوجاً بالتصوف لكان الفوز للثاني بلا جدال، ذلك لأن المبشر بالإسلام مع

التصوف يضيف إلى العقيدة ألواناً كثيرة من التعاليم والعبادات التي تنتهي بجذب المهتدي إلى الدين الجديد لأن التصوف مجموعة من الأنظمة الروحية التي تصل الرجل بربه وتبعث فيه حياة الوجدان، وهذا الذي أقوله لم أصل إليه إلا بعد تجارب، فالمؤمنون الحقيقيون عندنا في الغالب من معتنقي المبادئ الصوفية والخلاصة أن التصوف الصحيح يقدم إلى المسلمين ما تحتاج إليه أرواحهم من الأنظمة الجذابة التي تصل أفئدتهم وصلاً أبدياً بالدين الحنيف".

وبعد ذلك ألف رسالته التصوف الإسلامي وصلته بالأدب والأخلاق سنة ١٩٣٧ على ضوء أفكاره الجديدة في التصوف، ومما قال فيها معتذراً عن أقواله السابقة (بالأخلاق عند الغزالي).

إنني تحاملت على الغزالي وتعجلت على أرائه في سياسة النفس فقد كان الغزالي يدعو إلى العزلة عن الناس، وكنت أرى ذلك من الجبن في الحياة الاجتماعية، ثم تكشفت الحقائق فرأيت أن المروءة تقضي في أحيان كثيرة بالهرب من الناس ومن ذا الذي سلم أديمه من عدوان الخلق فلم يتمن الاعتصام من شرهم بالعزلة في شواهق الجبال، وكذلك عدت استروح بذكرى التصوف وأضمر له الشوق والحنين. ثم قال أن الرجل الصوفي حين يؤلف في أدب النفس يجمع بين الصورة القولية والصورة العملية فهو شعلة من اليقظة الروحية فيما يقول وفيما يعمل، أما مكان الصوفية بين أرباب الأخلاق فهو الصدر وهم أساتذة الناس في هذا الباب. ثم قال: "والخلاصة ليس التصوف وقفاً على أولئك الدراويش

الذين يعيشون عيشة التسول ويتخذون شمائل الزهاد صادقين أو كاذبين".

وقد كتب الأستاذ المرحوم جاد المولى بك في كتابه "الخلق الكامل عن الصوفية" ما نصه: قدر الصوفية المعارف النفسية حق قدرها وإن كانوا حملوها من المعاني فوق طاقتها فللفضائل حدود خاصة قد تخالف في حدودها علم الأخلاق البحت. ولكن الفضائل الإسلامية تحمد لطائفة الصوفية عنايتها بتطهير النفوس وتهذيب الأخلاق والوجدان وإحياء القلوب وكبح المطامع وكسر حدة الشهوات التي في محاربتها رواج للخير.

وجوه نقد التصوف والرد عليها

يقول بعض خصوم التصوف: أن التصوف ليس مما تدعو إليه الشريعة الإسلامية وإنه دخيل على الإسلام، لأن الإسلام دين عمل وكدح وجهاد؛ يأمر بالتمتع في هذه الحياة الدنيا دون إسراف ولا عدوان، ويعد المحسنين السلطان والتمكن على هذه الأرض وينهي عن الرهبانية ويحذر من الغلو في الدين والمبالغة في العبادة، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مواصلة الصوم والتهجد طوال الليل، فنهى ابن عمر عن مواصلة الصيام والقيام فقال له: قم ونم، وصم وأفطر، إن لبدنك عليك حقاً، وإن لأهلك عليك حقاً.

ويرد على أنصار الصوفية بقولهم: ولكن الإسلام مع هذا ينهى

الناس عن السكون إلى هذه الحياة الدنيا وزخرفتها، وينبئ عن حقارتها وقلتها بالنسبة إلى الحياة الآخرة، فكان الرسول صلى الله عليه وسلم مع سمو نفسه وعظمة روحه يقلل من متاع الدنيا ويحقر زينتها. وكان في خاصة نفسه يكثر الصوم والتهجد، ويعتكف في المسجد خصوصاً في شهر رمضان، ويلزم نفسه عبادات لا يلزم أصحابه بها بل ينهاهم عنها، ألا أن المسلمون اتخذوه القدوة والمثل الأعلى في كل ما فعل، وفي كل ما مثله لأمته، وما خص به نفسه من طريق الرغبة والحرص على التمثل به، ولم لا يكون ذلك وقد جاء القرآن الكريم وجاء الحديث الشريف يحثان على الذكر والفكر ومراقبة النفس والتحذير من الهوى والغفلة، ولهذا دعا ذلك المسلمين للنزوع إلى الزهد وإلى التقشف وإلى الإعراض عن الدنيا وإلى الإكثار من نوافل الصوم والصلاة والعبادات. خصوصاً والإسلام يقدر قيمة التقوى ويأمر بها ويجعل القيم الدينية في مقدار هذه التقوى.

ويقول خصوم التصوف: وإن الإسلام كذلك لم يأمر بالعزلة وعدم مشاركة الناس في سياستهم الدنيوية والاجتماعية فإن التقوى التي هدى إليها الإسلام هي تقوى العاملين لمعايشهم المجاهدين في هذه الدنيا، لا تقوى المترهبين العاكفين على العبادة والخانعين لغير الزمان وتقلب الحدثان. كما أرشد الإسلام للتقوى التي تحلى بها المسلمون الأولون، تقوى عمر، وتقوى علي وأمثالهما ممن كانوا يصرفون أمور الرعية ويدبرون الحرب والسلم في المساجد، ولا يفرقون بين العبادة والعمل لخير الأمة وحمايتها والدفع عنها.

ويرد على هذا أنصار التصوف بقولهم: نعم وقد كان إلى جانب هؤلاء جماعة لم تشغلهم أمور الناس، فبالغوا في العبادة وركنوا إلى الزهد؛ كعبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو، وأبو ذر الغفاري وحذيفة بن اليمان وغيرهم كاهل الصفة. على أن الفتن التي ثارت بين المسلمين فأسالت بينهم الدماء. أفزعت كثيراً من الأتقياء؛ وحببت إليهم الابتعاد عن مدارجها جهد الطاقة، وأوحت إليهم الإشفاق مما يعرض الدين للمآثم والشبهات فبالغوا في الانقباض عن الناس وبالغوا في العزلة والتورع. فالثورة التي قامت على عثمان؛ والحرب التي قامت بين علي ومعاوية، وقتل الحسين السبط بكربلاء. وصلب زيد بن علي وابنه يحيى بالكوفة، وحصار ابن الزبير وقتله على أبواب المسجد الحرام..

كل ذلك وأمثاله من الحوادث أوحت إلى المسلم التقي أن يفر بدينه وأن يعتقد أن مشاركة الناس في أمور الدنيا على هذه الحالة مشاركة لهم في هذه الفتنة التي أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفر المرء منها وأن يلزم عقر داره. لأن ذلك ارتكاس إلى الجاهلية الأولى التي نجا الله الإسلام منها. ولذلك اجتهد بعض المسلمين أن يعتصموا بالزهد وأن يعتزلوا الناس بعد مضي الخلافة الرشيدة ومجيء الملك بمظالمه وفتنه وغروره، وكان أول حادث من هذا النوع حادث سعد بن أبي وقاص أحد أهل الشورى الستة وقائد المسلمين في فتح فارس. فلقد فر سعد بدينه بعيداً عن الفتنة ولزم جماعة من أهل بدر بيوتهم بعد مقتل عثمان فلم يخرجوا إلا إلى قبورهم.

فإذا أضفنا هذه الحالات إلى ما كان في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم في خاصة نفسه وما كان من سيرة أصحابه، ثم إلى ما حث عليه القرآن الكريم وإلى ما جاء به الحديث الشريف وجدنا أنها تدل دلالة واضحة بأن التصوف نشأ في قلب الجماعة الإسلامية الأولى وأن منابع التصوف ونشأته ومصادره كانت أصيلة في الإسلام. حتى لقد قيل أن التصوف كان من طبع العرب قبل الإسلام وكان من طبع النبي صلى الله عليه وسلم قبل نزول الوحي؛ فقد كان يعتكف في غار حراء قبل بعثته وكان يتحنث بعيداً عن الناس وحيداً يتعبد على دين إبراهيم الخليل عليه السلام ويتفكر ويتأمل ويحاول بما في جوهر نفسه الصافي وبما في قلبه الطاهر أن يتصل بقدس ربه بمعرفة الحق إلى أن نزل عليه الوحي وجاءه اليقين وكانت العرب إذ ذاك تقول فيه قبل البعثة (أن محمداً عشق ربه)

هذا التفنيد تناوله مؤرخو التصوف الإسلامي في جملته وأما في تفصيله:

فالفلاسفة وأصحاب المذاهب العقلية: عابوا طريقة الصوفية في المعرفة وأنكروا أن يكون التفرغ والتجرد من متع الدنيا والزهد من شهواتها ونعيمها سبيلاً إلى المعرفة بل سبيل المعرفة عندهم هو تغليب أرقى أجزاء النفس على الحواس وهو أرفع مراتب السعادة كما يقول ابن رشد. ولكنهم بهذا يؤيدون الصوفية أكثر مما ينقدونها أو ينتقضونها، لأنهم في قولهم بتغليب العقل ينزعون إلى التصوف وإن اختلف الوضع فهم ينادون بالعقل؛ والصوفية ينادون بالروح.

وإذا كانت التربية الحديثة تدعو إلى تهذيب الأذواق بفنون الجمال الحسي فإن التربية الصوفية تدعو إلى تلطيف السر بأنواع الرياضة[١] وإن مما يعين على تحقيق الغرض من هذه الرياضة عدة أشياء، العبادة المشفوعة بالفكرة، ثم الألحان المستخدمة لقوى النفس الموقعة لما لحن فيها من الكلام موقع القبول من الإبهام، ثم نفس الكلام الواعظ من عقل زكي بعبارة بليغة ونغمة رخيمة وسمت رشيد. ويعين على تلطيف السر الفكر اللطيف والعشق العفيف الذي تحكم فيه شمائل المعشوق لا سلطان الشهوة[٢]

أما تنظيم أوقات العبادة مع الزهد والتقشف والتقليل من متع الحياة الدنيا فما هي إلا وسائل لتصفية الفكر وإعداده لفهم الحياة على حقيقتها الفطرية[٣] والصوفية عنواً بمعرفة النفس من الجهة الفكرية ليعرفوا صلتها بخالقها ومن الجهة العملية ليروضوا أنفسهم على الخير ويهذبوها ويضعوا للسالكين المقامات والأحوال التي يحدون بها سلوكهم ويجنبونها خداع النفس وأوهامها، ومن عرف نفسه فقد عرف ربه[٤]

وقال الغزالي في توضيح السعادة: سعادة كل شيء لذته وراحته، ولذة كل شيء تكون بمقتضى طبعه، وطبع كل شيء ما خلق له. فلذة

(١) الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق في سلسلة محاضراته بالجامعة المصرية القديمة عن الإمام الشيخ محمد عبده عند عرضه لقصته مع الشيخ درويش الصوفي.

(٢) ابن سينا في الإشارات

(٣) الأستاذ عبد الله حسين في التصوف والمتصوفة

(٤) الدكتور عبد الوهاب عزام بك في تقديمه لمجلة علم النفس العدد الأول.

العين الصور الحسنة، ولذة الأذن الأصوات الطيبة، وكذلك سائر الجوارح بهذه الصفة، ولذة القلب الخاصة بمعرفة الله سبحانه، لأنه مخلوق لها، وكل ما لا يعرفه ابن آدم إذا عرفه فرح به مثل الشطرنج إذا عرفه فرح به، ولو ينهى عنها لم يتركها ولم يطق عنها صبراً، وكذلك إذا وقع في قلبه معرفة الله فرح بها ولم يصبر عن المشاهدة، لأن لذة القلب المعرفة وكلما كانت المعرفة أكبر كان (الله أكبر) وكذلك إذا عرف الوزير فرح فإذا عرف الملك كان أعظم فرحاً، وليس موجوداً أشرف من الله سبحانه وتعالى لأن شرف كل موجود منه، وكل عجائب العالم أثر من أثار صنعته. فلا معرفة أعز من معرفته، ولا لذة أعظم من لذة معرفته، وليس منظر أحسن من منظر حضرته، وكل لذات وشهوات الدنيا متعلقة بالنفس وهي تبطل بالموت ولذة معرفة الله متعلقة بالقلب فلا تبطل بالموت لأن القلب لا يهلك بالموت بل تكون لذته وضوءه أكبر لأنه خرج من الظلمة إلى النور.

وقال رحمه الله: لولا صدق الرؤى عند الإنسان واستعداده للتنبؤ لما كان يصدق بنبوءة الأنبياء وذوي الوحي، وأنت تعجب العجب كله. إذ ترى في صدق الرؤى وتسمع أو توفق إلى إنسان لا يحلم حلماً إلا وقع كما رآه النائم في نومه، ونحاول مع هذا أن نتغلغل في كل شيء وأن نتعرف كل مجهول إلا أنه لا حياة الآخرة، ولا سعادة إلا مع الفضائل وكمالات النفس.

الفرق بين العلم والفلسفة والتصوف

فالعلم: يؤسس القوانين المستندة إلى المشاهدة الخارجية والتجربة الحسية والتي نشعر بها كأحداث الكون وظواهره دون أن تتجاوز هذه الأحداث والظواهر ما وراءها. والفلسفة: تحاول أن تتعرف حقائق الوجود وحقيقة مبدعة ومفيضة عن طريق النظر العقلي. والعلم والفلسفة: يحومان حول حقيقة الحقائق من بعيد. أما التصوف؛ فإن له غاية أسمى من غاية العلم والفلسفة فهو يرى الاتصال المباشر بحقيقة الحقائق ويرمي إلى شيء آخر أبعد من هذا الاتصال، وهو الشعور بالاتحاد مع الحقيقة العليا والأنس بها، ووكل كل شيء إليها، واعتبارها منبعاً فياضاً لكل ما في الكون من آيات الحق والخير والجمال. ويمكن القول إجمالاً بأن العلم نظريات والفلسفة أنظار والتصوف أذواق[١]

أما علماء الاجتماع: فقد تهكموا على الصوفية وأساليبها وأسرفوا من التهكم والتجريح لأنها في نظرهم لا تصلح للحياة العملية؛ ولا يقوم عليها نظام المجتمع، ولا يمكن أن تؤسس على نظمها الزاهدة الأمم، وهنا يقول قائل أنه مادامت آخرة الإنسان روحية فالدنيا تعتبر عدماً أو كالعدم. والأمة الزاهدة هي الرابحة السعيدة[٢] وصاحب هذا الدفاع يتمنى لو وجدت أمة تجتمع على التزام حدود الله وتذهب في سبيل الكمال إلى حد إيثار العدالة على القوة والإحسان على العدالة أيضاً

---

(١) الدكتور محمد مصطفى حلمي (ابن الفارض والحب الإلهي)

(٢) الدكتور يوسف كرم في الكلام عن الغاية القصوى للغزالي

وبهذا يكون أبناؤنا ملائكة يمشون على الأرض ويصلحون الأرض ومن عليها[٣]

على أن الصوفية لا تحرم الأخذ من الدنيا بنصيب، ولكن إذا ما تجرد أحد من هذا النصيب راضياً مختاراً وأقبل بكلية نفسه على الآخرة فذلك السمو الروحي الذي لا يبلغه إلا الأصفياء الذين زكت نفوسهم من الجوهر الخالي الزمن وتطهرت أرواحهم من كافة شوائب الأرض وعالم المادة والعيب فيهم منطق لا يستقيم وحجة يلجأ إليها الماويون ليستوي عندهم الناس من أقذار الحياة وشوائبها ومعينها الملوث البعيد عن الطهر والصفاء[٤] وكل هذه شهادة للتصوف لا عليه، فهي تدل أنهم لا ينشدون مظهراً في الحياة ولا غلبة في مضمارها ولا يبغون مأرباً ولا يلتمسون مغنماً وإنما ينشدون قرباً من الله ورضوانه وعبادة العبادة. بل أن التصوف جعل العبادة أصلاً والمعرفة فرعاً؛ والصوفية لا يقولون أن طريقتهم للناس جميعاً لأن الثانية لم تكن شرعاً مباحة لكل من يخطو بقدمين على الكوكب الأرضي وليس في استطاعة الناس أن يكونوا جميعاً ملوكاً أو أن يكونوا فلاسفة ولا أن يكونوا أطباء أو غيرهم من الطوائف ذوي المذاهب العقلية أو العملية والغزالي نفسه يقول؛ ولا يقعدنكم ما حكيناه عن علوم الصوفية أن تطلب العلوم الدنيوية فهي لا تنبئ عن حقارتها؛ وإنما هذه طريقة لو اتبعها الناس جميعاً لخرب العالم وبطلت الحكمة منه.

(٣) الدكتور محمد يوسف موسى

(٤) الدكتور أحمد فريد رفاعي في كتابه الغزالي

أما الفقهاء والمتكلمون: فقد هاجموا التصوف بل غالوا في هجومهم حتى رموهم بالمروق والكفر ومفارقة الشريعة وظاهر السنة، فكان زعيم حركات مناهضة الصوفية ومعارضتهم والهجوم عليهم الشيخ أحمد تقي الدين بن تيمية الذي سارت المعارضة من بعده على غرار أقواله وهجومه، فقد كان ابن تيمية يحرص كل الحرص على الآراء السلفية، ويحرص في كتاباته على أن تكون آراؤه مستمدة من السنة المطهرة وأن تكون أعمال المسلمين وأفعالهم مقيسة بقياس الشرع لذلك لم يكن ليستسيغ الآراء الصوفية التي ظهرت في العصور المتأخرة والتي كانت رغم صبغها بصبغة دينية ممزوجة بآراء الفلاسفة أو الصائبة أو زهاد الهنود وما إلى ذلك من أشياء ليس لها مسوغ شرعي في كتاب أو سنة.وابن تيمية يكره الفلسفة وعقيدة الفلاسفة ويعتقد أن هذه الألوان من التصوف التي ظهرت أخيراً كانت أثر من آثار تعاليم الشيعة والملاحدة حتى أن المصطلحات التي استعملها الصوفية تكاد تكون صورة واحدة لمصطلحات هؤلاء الملاحدة. وكان ابن تيمية لا يركن إلى ما اصطلح عليه الناس من حكمة أو سياسة أو مراعاة للظروف، وكل ما من شأنه أن يثبط العزائم عن الجهاد وكثيراً ما كان يتغنى بالبيتين المأثورين عن عمر بن الخطاب:

لــم يبــق فــي شــرف العــلا إلا التعـــــرض للحتـــــوف

فلأمرين بمهجتي بين الأسنة والسيوف

قيل أنه كان بدمشق أيام حرب التتار وشاهد بعض الصوفية يلجئون

إلى قبور مشايخهم وأنه سمع شاعر يقول:

يـــا خـــائفين مـــن التتـــر لـــوذوا بقبـــر أبـــي عمـــر
عـــوذوا بقبـــر أبـــي عمـــر ينجيكمـــو شـــر التتـــر

فقال لهم هؤلاء الذين تستغيثون بهم لو كانوا معكم في حرب التتار لانهزموا كما انهزم المسلمون في غزوة أحد لما أراد الله ثم أفتى بهدم القبور ومقابر الأولياء، ومع عداوة ابن تيمية للصوفية كان هو كذلك زاهداً ورعاً مداوماً على تلاوة القرآن ولم يتزوج. ومن غريب ما اتفق أن جميع البدع التي كان يحاربها وينهي عنها مثل تلاوة القرآن على الموتى والتبرك بالصالحين وآثارهم حصلت فيه عند وفاته. فقد جاء جماعة من أنصاره من رجال ونساء وقرءوا عليه القرآن وتبركوا برؤيته وتقبيله أو شرب جماعة منهم ماء غسله وتهافتوا على الاحتفاظ ببعضه وتردد الناس إلى زيارة قبره والتبرك به وقيل أنه قد دفع من طاقيته التي كان يلبسها خمسمائة درهم.

إن المذاهب ألقت بيننا فتنا وأورثتنا أفانين العداوات

والأمة الإسلامية مبتلاة بالجدل العقيم منذ أجيال، تجادل في أصول العقائد وتجادل في الفروع وتجادل فيما هو أقل في الأصول والفروع راضية بهذا الجدل، لاهية عن سر الإسلام وعظمته؛ وعن سر دعوة الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم، ولم تكتف بهذا بل انقسم أبناؤها وأقاموا الحروب على بعض، كل له مذهب ينصره ورأي يدافع

عنه؛ وكل ينظر إلى مصلحة فردية أو قومية أو جنسية أو مذهبية. فصارت هذه القوى من عوامل فناء الأمة لا من عوامل بنائها، ومن أسباب شقائها لا من أسباب سعادتها والقرآن الكريم يدعو إلى الوحدة ويدعو إلى رد ما اختلف فيه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولقد وصف القرآن المسلمين بالأخوة فقال إنما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله[1]

خالف ابن تيمية ومدرسته الغزالي ومدرسته، فبينما كان الغزالي يقرر أنه درس جميع المذاهب الفلسفية ودرس المنطق ودرس الديانات دراسة عميقة، فلم يهتد إلى غايته حتى أدلى دلوه في التصوف فغب منه وارتوى، ووجد فيه راحته وطمأنينة نفسه وناصر الصوفية لدرجة أنه كان زعيماً وكان محامياً لهم يقرر نظرياتهم في الورع والزهد، ويحدد المقامات والأحوال، وغير ذلك مما ارتاده في سلوكهم وطرائقهم، ثم يعلن أن في التصوف السعادة كل السعادة ومعرفة الله الحقة التي لا سبيل إلى بلوغها بدونه. كان ابن تيمية يدحض هذه الأقوال وبعدها من وهم الخيال، ومن خيال العقل وذهوله، وأن في طريق الصوفية مخالف للشريعة الإسلامية وبعيد عن مرامي الدين، وأنه دخيل على الإسلام. زوج بديانات أجنبية ومجاري للفلاسفة الذين هم في نظره ملاحدة وكفرة وأن زهادة التصوف ونظرياته تسربت إلى الإسلام لضعفه وأن هؤلاء الزهاد من الصوفية لا

(١) الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي في الاحتفال بذكرى المولد النبوي سنة ١٩٣٧

يقصدون إلا إضعاف الأمة الإسلامية وقتل روح الفتوة والجهاد فيها فهم (كالطابور الخامس) في الأمة، ولا يزال أنصار المدرستين إلى الآن في جدال عنيف ومناقشات حادة وكل فريق مصري على مبدئه يجاهد لنصرته وتأييده.

أما حملة ابن تيمية على البدع وعلى الشعوذة وعلى أولئك المضللين الدخلاء على الصوفية فمقبولة، وهي لا تخرج عن أنها حملة ضد مفهوم التصوف الشعبي الذي تكلمنا عنه في موضعه من قبل في هذا الكتاب. وكذلك حملته على كل ما من شأنه أن يثبط العزائم عن الجهاد في سبيل الله والدفاع عن البلاد والعباد. وإنا لنشاركه في حملته هذه ويشاركه كذلك كل متصوف صادق. لأن اللوم في الحقيقة لا ينصب على التصوف من حيث معانيه الحقيقية وإنما يكون واقعاً على الجهل والتضليل والتدهور الأخلاقي وضعف العزيمة، وقد يكون واقعاً على العلماء وعدم قيامهم بواجبهم وعلى سوء الإدارة الحكومية أيضاً لأن الحكام والعلماء أهملوا أمر الدعوة إلى الجهاد أو قصروا في تقديم العتاد الحربي ومهمات الدفاع فأضعفوا بذلك الروح المعنوية للشعب جميعه. فلم يبق هذا التقصير والإهمال بسبب الصوفية.

فإذا دعا الصوفية العزل من الناس والعجائز والأطفال إلى الفرار من التهلكة والتحصن بمقابر الأولياء المقام على غالبيتها المساجد، وإذا دلوهم إلى المقابر عامة فإنما دلوا الناس إلى أمكنة لها حرمتها وقداستها؛ ولا تزال محل احترام الجميع على اختلاف مناصبهم واتجاهاتهم الدينية،

وليس لأن سكان القبور من الأولياء الموتى لهم سلطان بالفعل أو قدرة على حماية الناس من المكروه.

﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ. وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ. إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ ۚ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

كتب الأستاذ أحمد صبري شويمان زعيم الأنصار وجماعته في التصوف بلون من الكتابة أشد وأقسى مما كتب ابن تيمية فاتهم (التصوف) بالوثنية ولم يفرق بين التصوف الصادق وبين الشعوذة والدجل، ولا بين تصوف الزهادة وبين التصوف الفلسفي حتى أن الصوفية عندهم على اختلاف مشاربهم ودرجاتهم هم الطابور الخامس الذين أوقعوا البلاد الإسلامية في مخالب الاستعمار الأجنبي. أمثال معروف الكرخي وشقيق البلخي حتى والغزالي والشاذلي، والفضيل بن عياض وإبراهيم أدهم وغيرهم؛ واتهم الجميع بالجبن والخور والنفاق وضعف العزيمة والحرص على المال والخوف من الموت وبالجملة فإنهم يحرصون على الحياة الذميمة، وإن ما تكلموا فيه من علوم ما هي إلا اتجاهات صدرت منهم عن سوء قصد من رجعة العقائد الوثنية والبوذية والمجوسية وما إلى ذلك، وأرادوا بها أفناء الإسلام والمسلمين بتحريض

خصوم الإسلام من أهل الديانات المختلفة، وهذه الدعاوى كلها جريئة ومغالى فيها. ولم يقل أحد من خصوم التصوف والصوفية بها وإن زعموا تسرب آراء وأفكار أجنبية عن الإسلام من ديانات وفلسفات إليه يرد عليها أنصار التصوف ومؤرخوه المعتدلون.

أما الحرص على المال: فمن أين أتى لهم وهم ملومون على التفريط فيه لأنه عصب الحياة، وقوام الدولة وزهدهم فيه مخالف للاجتماع، ومن أروع ما روى عن أحد الصوفية أنه سئل. كم تجب الزكاة في مائتي درهم؟ فقال: أما عند العوام بحكم الشرع فخمسة دراهم، أما نحن فعندنا فبذل المال جميعه في وجوه الخير بل ومن أين يأتي لهم الحرص، وقد قيل أن أبا حازم الأعرج دخل على بعض ملوك بني مروان، وكان من حوارهما أن سأل الملك أبا حازم ما مالك؟ قال مالي مالان. قال ما هما؟ فإن الثقة بما عند الله واليأس مما في أيدي الناس. قال أرفع حوائجك إلينا قال هيهات؟ رفعتها إلى من لا تختذل الحوائج دونه. فإن أعطاني منها شيئاً قبلته، وإن زوي عني شيئاً رضيت. فإن صح الحرص فهو لدى الكذابين والدجالين فلا يصح أن يتهم به أهل الإيثار والفتوة الصادقين في التصوف الذين لهم قدم ثابت في الزهد وحب الخير للناس.

أما الجبن والضعف والخور والنفاق: فإن الصوفية الكبار ضربوا الأمثلة العديدة على الجرأة في الحق وعدم الخوف من الخلق، ومن أبلغ الأدلة ما يروى عن أبي الحسين النوري والمعتضد الخليفة العباسي،

وهذه واحدة في الحوادث الكثيرة التي تشهد لهم بالبطولة.

كان عصر المعتضد عصراً عبد الناس فيه الهوى وبرزت فيه السيئات، وانحرف الخلفاء عن آداب الإسلام ومالوا إلى الشهوات وتابعهم الناس: وعمد رجال الفقه والعلوم الكسبية إلى المصانعة والتقية فلانوا مع أهواء الخلفاء وسايروا الجماهير. ولكن النوري لم يسر في هذا الطريق، ولم ترهبه سطوة الخلفاء وصغر ذلك كله في عينيه وتضاءلت عنده الرهبة. فأي شيء يخيفه؟ لاشيء إلا الحق.

نزل النوري يوماً إلى دجلة ليتهيأ إلى الصلاة أي ليتوضأ، فرأى زورقاً تلمع فيه حراب الجند وترتفع منه أغانيهم، ورأى دنان الخمر تملأ رحاب الزورق. وكأن المنكر يسبح في حماية الماء وهيبة الخليفة؛ والنوري لا يقبل مثل هذا العمل. ودفع الظل فريضة وحياة. فوثب في غضبة المؤمن وثبة أوصلته إلى الزورق فاضطرب الجند وتصايحوا أنها للخليفة. فازداد النوري غضباً، وتناول عموداً من الحديد وانهال على الدنان تكسيراً وتحطيماً. وهو يردد قول الله تعالى (وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا) فأتى عليها كلها إلا واحدة، وألقى الجند القبض عليه، وسيق إلى الخليفة المعتضد وكان قاسياً جباراً؛ ولما دخل عليه النوري ارتعد الخليفة فهو يعلم من هو النوري ولكنه ملك نفسه وصاح بالنوري مستهزئاً. ما حملك على هذا الذنب الكبير؟ فأجاب النوري: الذنب الكبير والعذاب الأليم لك ولمن أتبعك من الغاوين، حملتني الشفقة الكبيرة عليك من النار الموقدة التي أعدت للعصاة أمثالك، فبهت

الخليفة وانتقل إلى نطاق جديد في القول.

وقال تركت واحدة، فقال النوري: "أعجبتني نفسي حينما وصلت إليه فتركته خيفة أن أحطمه إعجاباً وغروراً لا طاعة واحتساباً"، قال الخليفة: "ألا تخشى غضبي". فأجابه النوري: "وأنت ألا تخشى غضب الجبار. لتعلم أن لله عباداً يقومون بالله ويروحون بالله ويرجعون في كل أمورهم إليه" قال الخليفة: "سأخلي سبيلك على ألا تعود لمثلها". قال النوري: "لئن عدت لعدنا فو الله لن تكون على باطلك أقوى منا وأجرأ على حقنا"، وخرج النوري وهو يردد قول الله: "والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون". وفرحت بغداد بانتصار أمامها وحجتها، وروى السبكي في طبقاته، أن العز بن عبد السلام وكان ممن يعتنقون المبادئ الصوفية على الطريقة الشاذلية وقف في وجه القائم بأمر مصر وقتئذ لما أراد أن يفرض ضريبة على التجار لسد النقص من بيت المال وخاطبه قائلاً: إذا أحضرت ما عندك وعند حريمك من الحلي، وأحضر الأمراء كذلك ما عندهم وعند حريمهم. وضربت سكة ونقداً ولم تقم بالكفاية، فلك أن تطلب مني هذا الفرض، وأما قبل ذلك فلا.

وأما كراهية الموت فيرد ابن عطاء الإسكندري، إذ يروي عن أبي الحسن الشاذلي أنه كان يقول: من أحب الله فقد تمت ولايته؛ والمحب على الحقيقة لا سلطان على قلبه لغير محبوبه، ولا مشيئة غير مشيئته. فإذن من ثبتت ولايته لا يكره الموت، ويعلم ذلك في قول الله تعالى (قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا

﴿الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فأذن الولي لا يكره الموت إن عرض عليه. ومن أحب لله من لا محبوب له سواه أحب له من لا يحب شيئاً لهواه. وأحب لقاه من ذاق أنس مولاه.

كذلك يروون عن جلال الدين الرومي أنه قال في المثنوي ما ترجمته بالعربية: ماذا عساني أن أخاف من الموت؛ سأموت إنساناً لأبعث في عالم الأرواح والملائكة بل سأنزع روحي الملكية لأصبح مالا يخطر بعقل ولا يلم بشعور ليصدق فيّ السر المكنون من ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[1].

ومما يؤكده المؤرخون، أن الصوفية آزروا المماليك بمصر والشام وهم الذين خلدهم التاريخ آيات البطولة لأنهم صدوا تيار البرابرة من الصليبين والتتار، وأنقذوا الإسلام من محن كادت تودي بنا جميعاً، وهؤلاء المماليك آزروا الصوفية، واتخذوا منهم مخبأ يقي الإسلام خطر المهاجمين. ففي التصوف قوة الدفاع علماً وعملاً ونظاماً.

إن اصطلاحات الصوفية مثل القطب والنقباء وما إلى ذلك تتطابق تماماً مع نظام الجندية والرتب العسكرية حين نشأت هذه الإصلاحات[2]. أجل ما كان كبار الصوفية يتقاعدون عن الجهاد ولا كانوا بمعزل عن ميادين المعارك، وإن كانوا لم يهتموا بتدوين أخبارهم في هذه

---

[1] فصول في المثنوي ترجمة الدكتور عبد الوهاب عزام بك.

[2] محاضرة المرحوم الشيخ التفتازاني بجمعية الشبان المسلمين بالإسكندرية صيف ١٩٣٢.

الناحية. لأنهم يفضلون عدم الإعلان والشهرة ولا يقيمون لهما وزناً فهم يعملون لله وبالله؛ وإذا كان عند بعضهم من شرط الفتوة الملامة بل والإيثار. فهم يؤدون الواجب ولا يطلبون من الناس الجزاء والشكران وإنما أجرهم على الله. وكذلك المؤرخون لم يعنوا بتدوين أخبار بطولتهم، وإنما عنوا بأخبار الملوك والسلاطين أكثر من غيرهم.

هذا أبو الحسن الشاذلي المتوفى سنة ٦٥٦هـ مع أنه كف بصره في أخريات أعوام حياته كان يتردد على المنصورة، والمنصورة لم تكن متنزهاً في ذلك الوقت ولا كانت محلاً للتكايا والخانقاه يقيم بها الدراويش يرتلون الأوراد والأذكار وما إلى ذلك. بل بناها الكامل الأيوبي سنة ٦١٦هـ لتكون قاعدة لإدارة الأعمال الحربية والعسكرية، وقلعة لسد تيار الصليبيين الذين نزلوا دمياط وحاصروها واحتلوها سنة ٦١٢هـ، ومنها كانوا يريدون الوصول إلى القاهرة واحتلال البلاد وبقيت كذلك حتى سنة ٦٤٨هـ تعج بالجند وتزخر بالعتاد الحربي والسلاح، وحدثت بها الموقعة الكبرى التي قضت على كل أمل للصليبيين، فانهزمت جيوشهم في حملتهم السالفة وأسر فيها لويس التاسع ملك فرنسا، وتحقق النصر التام للجيوش الإسلامية أو بالأحرى للجيوش المصرية.

ولنا أن نتساءل ماذا كان شأن هذا الصوفي الكفيف البصر، وماذا كان عمله بالمنصورة؟ هل كان هناك يؤدي طقوس التصوف وتقاليده، فتقام له مجالس الذكر وحفلاته؟ أم هل كان هناك بمعزل عن الناس معتكفاً في خلوة أو خانقاه يتلو أوراده وأحزابه وذكره وعبادته؟ كلا.

فليس بالمنصورة في ذلك الوقت خلوات ولا خانقاه. بل وليس للناس متسع من الوقت لهذه الأغراض، بل المنصورة تعج بالجند والسلاح والعتاد والقوم مشغولون بالدفاع، وأخبار المعارك وبتحقيق النصر على العدو الذي داهم البلاد، ووضع أقدامه بها يريد أن يسيطر عليها، فالنزعة العسكرية هي السائدة في جميع أنحاء الأقطار والأمصار، ولا بد أن يكون لهذا الكفيف البصر عمل متصل بالموضوع الذي يشغل الناس..

يروي ابن عطاء الله الإسكندري في لطائف المنن خبر اجتماع حافل ضم عظماء العلماء والصوفية في خيمة بالمنصورة بينهم أبو الحسن الشاذلي، والعز بن عبد السلام، وابن دقيق العيد، ومحيي الدين بن سراقة، ومجد الدين الأخميمي، ومكين الدين الأسمر، وأبو عبد الله الشاطبي، ورسالة القشيري تتلى بين يديهم. فتكلم كل منهم بما عن له ثم ألحوا على أبي الحسن الشاذلي في الكلام، فتكلم فأعجب بكلام القوم إلى أن خرج العز بن عبد السلام، وقال ما رأيت كلاماً أقرب إلى الله من كلام أبي الحسن الشاذلي إلخ...

ولا أعتقد أن هذا الكلام كان في التصوف أي في السلوك والمقامات فحسب بل كان في موضوع الجهاد والاستشهاد وبيع النفس في سبيل الله أي في نفس الموضوع الذي يشغل بال الناس، ويسيطر على أفكار الناس وإلا لما كان للكلام طلاوة وحلاوة سيما وبين المستمعين سادة علماء الدين والشريعة وما كان لمثل هؤلاء أن يتذاكروا أو يتدارسوا إلا ما يتفق والمناسبات الملابسة والنزعة السائدة.

فإذا كان الصوفية ينزعون هذه المنازع بمصر، فقد كان الأمر كذلك بالشام فقد روت المصادر العربية أن الملك المعظم توران شاه لما تم النصر له، وأسر لويس التاسع أرسل خفارته إلى نائبه بدمشق جمال الدين بن مطروح، فلما وصلت غفارة ملك الفرنسيس لمجلس الأمير كان نجم الدين بن إسرائيل الشاعر الصوفي المعروف بأقواله المشهورة بالنظريات العنيفة الصوفية، والذي وضعه المتسننون ضمن القائمة السوداء بين المطعون في دينهم ارتجل ابن إسرائيل هذا ثلاث مقطوعات يمدح بها الملك والأمير النائب، قال في إحداها:

إن غفـــارة الفرنســـيس التـــي	جـــاءت حبـــاءً لســـيد الأمـــراء
ببياض القرطاس في اللون لكن	صـــيغتها ســـيوفنا بالـــدماء

فما شأن هذا الصوفي، وما شأن الصوفية بالسيوف والدماء إذا لم يكن لهم عمل وشأن بالحالة الحربية والتجريدات العسكرية، فكانوا بأنفسهم في الميدان. أما جمال الدين بن مطروح فهو ذلك الشاعر الكبير صاحب القصيدة المشهورة الذي أرسلها للملك توران شاه مع رسوله الذي وفد بغفارة ملك الفرنسيس لدمشق التي قال فيها:

قـــل للفرنســـيس إذا جئتـــه	مقـال نصـح مـن قـول فصـيح
أتيـــت مصـــراً تبتغـــي ملكهـــا	تحسـب أن الزمـر يا طبـل ريـح
فســـاقك الحـــين إلـــى أدهـــم	ضـاق بـه عـن ناظريـك الفسـيح
وكـــل أصـــحابك أودعـــتهم	بحسـن تـدبيرك بطـن الضـريح

سبعون ألفاً لا يرى منهم إلا قتيل أو أسير جريح

وقل لهم أن أزمعوا عودة لأخذ ثأر أو لفعل قبيح

دار ابن لقمان على حالها والقيد باق والطواشي صبيح

هذا وقد قصدت بهذه الروايات أن الصوفية لم يكونوا بمعزل عن ميادين الجهاد، وكل ما يختص بالدفاع عن البلاد حتى كفيف البصر من شيوخهم. وكيف لا يكون ذلك كذلك. وقد سمعوا الحديث الشريف: الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا: وسمعوا في القرآن الكريم (فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ) فهم يتمنون الموت ويطلبونه ولا يكرهونه إذا عرض عليهم وهو يطلبونه إذا لم يجدونه واقعياً. يتخذون للحصول عليه وسائلهم الخاصة حتى يحصلون عن الموت الاختياري، وهو موت النفس عن الشهوات وعن الرذائل لتشرق هذه النفس بنور ربها، وتسعد بقربه مصداقاً لقول الله تعالى ولحديث الرسول "صلى الله عليه وسلم"، وأي درجة أعلى وأسمى من الاستشهاد في سبيل الله وفي نصرة دينه. فالذي يجب أن نعرفه أن كل متصوف يختلف عن الصفوف الأولى للمجاهدين أو يحرص على الحياة الذميمة ثم يزعم بعد ذلك أنه صوفي فهو صاحب دعوى وكذاب ومنافق، أما اختلاق التهم في كمل الصوفية والصادين منهم فهو افتئات صريح على الصوفية وعلى التصوف الصادق.

نحن نرى إلى اليوم المواكب التقليدية للصوفية تمر أمام أعيننا في الحفلات والمواسم الدينية فنراها تتخذ شكل الطوابير العسكرية عند

عرضها، ونرى الصوفية في هذه المواكب يحملون البنود والرايات ويحملون السيوف وآلات الحرب، وإن كانت رمزية، ويدقون الطبول؛ وما كانت هذه التشكيلات وهماً بل حقيقة من قبل حافظت على وضعها وشكلها القديم. فظن السذج والبسطاء وناقدو التصرف أنها لعب، وظن جهلة الصوفية أنفسهم أن هذه عادات وأوضاع صوفية تعبدية، وغابت عنهم حقيقة الأمر.

وإني أعتقد أن المنظمات الدينية الحديثة التي لها نزعات صوفية، قد تدرجت فتجددت إلى وضع عصري، واصطبغت بصيغة رياضية عسكرية صوفية حديثة على غرار المواكب الصوفية التقليدية، ومن ذلك كشافة الشبان المسلمين وجوالة الإخوان المسلمين وفرق مصر الفتاة وغيرها.

ولا نذهب بعيداً إلى التدليل بصحة رأينا هذا، فإننا إذا رجعنا قليلاً إلى ما قبل النصف قرن الماضي بقليل لوجدنا أن زعماء الصوفية وشيوخ التصوف كان لهم شأن ملحوظ كبير في المواقف الوطنية بل والسياسية. وكانت نزعة الجهاد والوطنية أصيلة فيهم فبيت البكري والسادة الوفائية بمصر وبيت المهدي والميرغني والختم بالسودان، وبيت السنوسي والمختار بطرابلس وبرقة وبيت الحسيني والدجاني وأبو الهدى الصيادي والقاوقجي بسوريا وشرق الأردن ولبنان وفلسطين، وغير هؤلاء بالبلاد الإسلامية ممن لا نحصيهم بالمشرق والمغرب، فكلها بيوت صوفية قديمة وأصحابها من كبار الشيوخ وزعماء التصوف، وها نحن الآن

ومشكلة فلسطين تشغل أذهان العالم الإسلامي وتشتعل أوار معاركها.

الشيخ محمود أبو العزايم يودع مريديه

الشيخ محمود أبو العزايم الذي جهز على نفقته الخاصة مائتي متطوعا من مريديه، ودربهم بمعسكر مصر الفتاة بمنسافيس

الشيخ نسيب البكري في إحدى معارك القدس

الشيخ نسيب البكري كان في زيه الصوفي بعمامته ولباسه العسكري يقود أتباعه في إحدى معارك القدس

فما هو إذن مفهوم التصوف كما يجب أن يكون وكما فهمناه من شيوخنا؟

التصوف هو الصفاء الروحي أي استشراق المعرفة من جوانب القلب بإيقاد مشغله وربط القلب برباط وثيق ببارئ النسم وواهب النعم ومفيض الوجود؛ وملهم الحكم مع العمل في الحياة لأداء الواجب.

(١) الواجب الديني بأداء العبادات والتماس التقوى منها ومحبة الله وتوحيده الخالص.

(٢) الواجب للمجتمع بعمل البر والخيرات.

(٣) الواجب للإنسانية بتكريم الإنسان والعطف على الجماعة ومحبتها.

(٤) الواجب للوطن بالذود عنه والعمل على عزته.

أما وإن هذه الواجبات كلها وقد حث عليها الدين وحددها، ولا خلاف في ذلك بين العقيدة والأحكام مهما اختلفت العصور والبيئات والأمصار؛ فالتصوف على هذا الوضع لا يختلف مع الدين ولا مع أحكام الشريعة وسنة الصدر الأول وهو مذهب لا غبار عليه.

دستورنا في التصوف

طريقة الشاذلية

فطريقة الشاذلية لا تؤمن بالبله ولا بالشعوذة ولا بزوال العقل، والفناء الحقيقي عندهم هو حب الله مع أداء الواجب. حتى أن المأخوذ بالفناء في الحب إذا ذهب عقله لا يعتبر حجة للسالكين يترسم المريدون سبيله ومنهجه على الصورة العارضة له؛ أما إذا عادت له حالته الطبيعية من كمال العقل وانتهاج ميزان الشرع أصبح بعد ذلك ممن يصح الاقتداء به.

كما المجذوب المتواجد بضريح السيدة زينب أخذ يتمتم بكلام غير مفهوم كما نشرته جريدة النداء بشهر مايو الماضي لمناسبة الاحتفال بمولد حفيدة الرسول "صلى الله عليه وسلم" ورضي الله عنها. فليس أمثال هذا المجذوب ممن يقال فيهم أنه من الصوفية.

إنه فقط مجذوب من مجاذيب السيدة يجلس إلى جوار الضريح

وهو يتمتم بكلمات لا يعرف سرها إلا أمثاله

وتأمر طريق الشاذلية بالقصد وعدم التعالي، ومما يروى عن أبي العباس المرسي، أنه قال: "دخلت على الشيخ أبي الحسن الشاذلي وفي نفسي أن أكل الخشن وألبس الخشن فقال لي. يا أبا العباس. أعرف الله وكن كيف شئت".

ومما قال ابن عطاء الله الإسكندري: "دخلت على الشيخ أبي العباس المرسي وفي نفسي ترك الأسباب والتجرد وترك الاشتغال بالعلم الظاهر قائلاً أن الوصول إلى الله لا يكون على هذه الحالة. فقال لي من غير أن أبدي له شيئاً، صحبني بقوص إنسان يقال له ابن ناشئ وكان مدرساً بها ونائب الحكم فيها. فذاق من هذا الطريق شيئاً على أيدينا. فقال لي: يا سيدي.. أترك ما أنا فيه وأتفرغ لصحبتك؟ فقلت له ليس الشأن ذا؟ ولكن أمكث فيما أقامك الله. وما قسم لك على أيدينا هو إليك واصل. ثم قال. هكذا شأن الصديقين لا يخرجون من شيء حتى يكون الحق هو الذي يتولى إخراجهم. فخرجت من عنده وقد غسل الله تلك الخواطر من قلبي، وكأنها كانت ثوباً نزعته ورضيت عن الله فيما أقامني فيه.

ومما يروى عن أبي الحسن الشاذلي في تفسير (يسروا ولا تعسروا) أي دلوهم على الله ولا تدلوهم على غيره فإن من دلك على الدنيا فقد غرك، ومن دلك على الأعمال فقد أتعبك، ومن دلك على الله فقد نصحك.

وقال ليس الشأن أن تطوى للولي الأرض فإذا هو بمكة أو غيرها من البلاد، وإنما الشأن أن تطوى عنه صفات نفسه فإذا هو عند ربه. خرج الزهاد والعباد من هذه الدار وقلوبهم مقفلة عن الله (مستغرقة في الزهد والعبادة لنفسهما) ومما قال: إذا خالف كشفك الشريعة فأضرب بالكشف عرض الحائط وتمسك بالشريعة. فقد ضمن الله لك النجاة في التزام الشريعة، ولم يضمنها لك في الكشف المخالف لها..

وكان أبو الحسن الشاذلي لا يستخلف أحداً حتى يكون قد برع في علم الشريعة وتبحر بها، وكان يقول ليس هذا الطريق بالرهبانية ولا بأكل الشعير والنخالة، وإنما هو بالصبر على الأوامر واليقين في الهداية. قال تعالى: (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ) فلا تسرف بترك الدنيا فتغشاك ظلمتها وتنحل أعضاؤك بها فترجع لمعانقتها بعد الخروج منها بالهمة أو بالفكرة أو بالإرادة أو بالحركة.

ومن النفاق عند العبد التظاهر بفعل السنة، والله يعلم منه غير ذلك، ومن الشرك بالله اتخاذ الأولياء والشفعاء دون الله، والله يقول: (مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ) ومن سوء الظن بالله أن يستنصر العبد بغير الله من الخلق، قال الله تعالى: (مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ).

ويقول في العلم: أن الولي في مقامه لا بد أن يبقى معه طبيعة علمية عليها يترتب التكليف، وذلك كما يكون الإنسان في البيت المظلم فهو عالم بوجوده، وإن كان غير شاهد له، وفي ذلك يقول أبو العباس المرسي أيضاً. من لم يتغلغل في هذه العلوم مات مصراً على الكبائر وهو لا يعلم.

ويتفق مع الغزالي في تصوفه

فالأخلاق عند الغزالي هي تطهير الجوارح تطهيراً كاملاً عما يلوثها الفقهاء، وخصص لآداب التصوف فصولاً في كتاب الأحياء وغيره من كتبه صال فيها وجال وأفصح وأصبح نسيج وحده بين رجال الفكر الإسلامي. فإن المبادئ الأخلاقية النبيلة التي وصفها وشرطها للمؤمن جديرة بإيجاد مجتمع إنساني ملائكي فاضل سليم من الضغن ومن التنازع بعيد عن الفحش والرذيلة، وكذلك النظم التي سنها ووضعها للمجتمع وطرق الاتصال والتعامل وعوامل الاتحاد والمحبة خليقة بإنشاء دولة عالمية متحابة متعاونة متفانية في الفضيلة تهدف إلى وجهة عليا يرفرف عليها علم المحبة ويربطها قانون الأخوة ويسعدها السلام الدائم للروح والقلب والإحساس. وقد كان رجال التربية وأساتذة الفكر المثاليين يفكرون في إيجاد طبقة إنسانية ممتازة كاملة الرجولة قوية الحيوية سامية الخلق والفكر متلائمة التناسق.

والغزالي يجعل الصوفية من ذلك النوع الممتاز من البشرية السعيدة

الطاهرة، والغزالي يربط التصوف بالشريعة رباطاً لا ينفصم فيجعل التمسك بقواعد الشريعة غاية السالك، فإذا خالف الشريعة ولو سار على الماء وطار في الهواء فهو شيطان. إلا أنه مزج العبادات كلها بروح التصوف فأطلق فيها النور والروح إطلاقاً يبعث في القلب نشوة الإيمان بالله والخوف والرجاء فيه، ويجعل من ذلك فرحة للحس المطمئن إلى الواجب المقدس.

ويقول في كتابه (ميزان العمل): اعلم إن سالك سبيل الله تعالى قليل والمدعى فيه كثير ونحن نعرفك علامتين له

الأولى: أن تكون جميع أفعاله الاختيارية موزونة بميزان الشرع موقوفة على حد توقيعاته إيراداً وإصداراً وإقداماً وإحجاماً. ولا يمكن سلوك هذا السبيل إلا بعد التلبس بمكارم الشريعة كلها، ولا يصل فيه إلا من واظب على جملة النوافل، فكيف إليه من أهمل الفرائض.

الثانية: والسالك لسبيل الله يعرض عن الدنيا إعراضاً لو ساواه الناس كلهم لخرب العالم، ومع كل هذا فالغزالي يأمر بتعلم العلوم الدنيوية والعمل للحياة الدنيا، لأن المثالية ليست شرعة مباحة للجميع.

شيوخنا وإخواننا

هو السيد أحمد النجاري الحسني الحسيني، ولد رحمة الله بدمياط حوالي سنة ١٨٣٠، وتوفي بالإسكندرية سنة ١٩٢٤ كان عالماً فاضلاً تقياً، تخرج من الأزهر الشريف ومن شيوخه في علوم الشريعة الشيخ الباجوري، ومنه أخذ أجازة التدريس والفتوى، ومن شيوخه في طريق القوم السيد حسين المصيلحي الخلوتي، والسيد أبو المحاسن القاوقجي الشاذلي، وقد تولى القضاء الشرعي أربعين عاماً، وظل يخدم الطريق لهداية الناس وإرشادهم إلى الحق طيلة حياته، وقد كان حاضر الذهن نافذ البصيرة غزير العلم سلس العبارة قوي الإيمان بالله فخوراً بانتسابه إلى العترة الطاهرة النبوية غيوراً على الإسلام والمسلمين محباً لأهل العلم عطوفاً على الفقراء والمساكين وله الكثير من النفحات والبركات.

الشيخ سليمان فوزي

ولد الشيخ سليمان بأكوه الحصة منوفية سنة ١٨٧٧م، وتوفي بها سنة ١٩٤٥م.

تصوف أستاذنا الشيخ سليمان فوزي

كان الأستاذ رحمه الله متواضع الأخلاق ليناً سهلاً كثير العلم رائق التصوف هادئ الفكرة كامل الأدب، مخلصاً في محبة إخوانه ومريده. لا يكترث بالدنيا وما فيها من بهجة وزينة، ولقد عرفنا منه كيف نسلك طريق

القوم من غير تزمت في الدين، ومن غير عنف أو مغالاة في سلوك التصوف وفهم نظريات الصوفية؛ وقد كان شديد الحرص على التمسك بخالص التوحيد، وحريصاً على ربط مواثيق المحبة والإخاء بين الإخوان، وكان ينقلنا دائماً من التشاؤم إلى التفاؤل ويدفعنا للعمل في الحياة ويحفزنا على النشاط فيها مع الاحتفاظ في كل الحالات بحيوية القلب وإرضاء الضمير وكان يدعو إلى الحب والتسامح، ويتمثل قول الشاعر:

رأى المجنـون فـي البيـداء كلبـاً	فجـر لـه مـن الإحسـان ذيـلاً
فلامــوه علــى مــا كــان فيــه	وقـالوا كـم أنلـت الكلـب نـيلاً
فقـال دعـوا الملامـة أن قلبـي	رأتــه مــرة فــي حــي ليلــى

وكان يذكر كثيراً قول أبي الحسن الشاذلي (خلوة الشاذلي فكرة) تدليلاً على كراهيته للبطالة واتخاذ الخلوة وسيلة إلى الفرار من العمل في الحياة. وكان يعجبه خطة جلال الدين الرومي، إذ كان يحث على العمل في الحياة ويدعو إلى العشق والمحبة وينادي بالاختيار ويحفز الناس على المسير قدماً، ويذكر قوله في ذلك أن الحياة جهاد مستمر فلا ينبغي للمجاهد أن يسكن فيها ساعة.

فالغريق يجهد نفسه ويضرب بيديه على كل عشبة لعلها تنقذه من الخطر، والحبيب (أي الله) يحب الاضطراب، فالجهد الذاهب سدى خير من النوم. إن الملك نفسه (الله) ليس فارغاً من العمل، ولهذا يقول الرحمن (كل يوم هو في شأن) ويرى أن الشدائد معارج الكمال مع

الصبر عليها فيقول: فرجل الطريق أو رجل الله يلقي الخير والشر واللذة والألم راضياً موقناً أنه بالألم يكمل ويرقى حتى يبلغ غايته، فالنواح من الأرواح المجاهدة مناجاة دائمة ورقي مستمر.

وكان الأستاذ ينكر ذاته كأستاذ فكثيراً ما كان يقدم منا أحد المريدين ليصلي إماماً ويصلي هو معنا مأمومين له، وكان لا يحب أن يتصدر المجالس، ولا يحب أن يحتكر الكلام فيها. بل يفسح للجميع الكلام ويوسع صدره لكل ما يقال كأنما يريد أن يتعرف آراء واتجاهات المتكلم. أو بالأحرى مقدار ما استفاد المريد من سلوكه ليتمكن من مريديه لتخليص أفئدتهم من الشكوك والأوهام وردهم إلى مقام اليقين. ها هو يدعوني مثلاً لقراءة بعض الكتب ويستمع إلي، ثم يستوضحني بعض النقط ويتجاهل بعض المسائل، ويدفع بعض السامعين لسؤال غامض، وها أنا أرد بما وسعني علمي، فإذا أصبت استبشر، وإذا اقتربت من مواقع الخطأ أو الشطط أوقفني ليوضح الإبهام وليزيل الغموض.

نقد نظريات الصوفية

ينقد ابن تيمية نظريات الصوفية بل يقسو في الطعن عليهم فيقول: "هؤلاء القوم من أعظم ضلالهم مشاركتهم للفلاسفة، وتلقيهم عنهم. فإن هؤلاء القوم أبعد الناس عن الاستدلال بما جاء به الرسول "صلى الله عليه وسلم"، الذي بعث بالبينات والهدى يبين الأدلة العقلية ويخبر الناس بالغيب الذي لا يمكنهم معرفته بعقولهم".

وهؤلاء يقولون: أنه لم يفد الناس علماً بخبره ولا بدلالته، وإنما خاطب خطاباً جمهورياً ليصلح به العامة؛ فيعتقدون في الرب والمعاد اعتقاداً ينفعهم وإن كان كذباً، وحقيقة كلامهم أن الأنبياء تكذب فيما تخبر به المصلحة؛ فامتنع أن يطلبوا من خبرهم علماً. وإذا لم تكن أخبارهم مطابقة للمخبر، فكيف يثبتون أدلة عقلية إلى ثبوت ما أخبروا؟ ولهذا لا يعتقدون بالقرآن ولا بتفسيره ولا بالحديث ولا بكلام السلف، وإن تعلموا من ذلك شيئاً فلأجل تعلق الجمهور به؛ ليعيشوا بينهم بذكره لا لاعتقاد موجبه من الباطن[1].

فابن تيمية يتمسك بظاهر اللفظ وحرفية النصوص، ويرفض كل تأويل وتعليل، ويحكم على الصوفية حكماً صارماً بأنهم يجارون الفلاسفة، وهو يكره الفلسفة إطلاقاً لذاتها، ولكنه ينسى تقدير العوامل النفسية والظروف والأحوال التي أحاطت بالصوفية.

ولا يكفي للحكم على الشيء البحث والاستنباط والنظر في النصوص بلا تقدير للعوامل النفسية والدوافع التي أوجدتها، مع أن تقدير هذه العوامل عامل كبير في الحكم عليهم وأكبر هذه العوامل هي التجربة والمشاهدة والذوق. وقد يقال أن الذوق منهج لا يتفق مع طبيعة الحياة، ولا يفسر كل شيء ولا يتفق عليه جميع الناس، ولا تقبله جميع العقول وسواء صح هذا أو لم يصح؛ فقد فاز الصوفية بإبراز ناحية من العلوم الروحية والمعارف العقلية عن طريق أذواقهم وتجاربهم ومشاهداتهم وهي عندهم علوم الباطن. وعلوم

[1] مجموعة الرسائل لابن تيميه.

الحقيقة، وليست هذه أثر من اعتناق مذاهب فلسفية وإن تشابهت في ظاهرها بتلك المذاهب: ولماذا لا تكون هذه العلوم تلقائية؟!

يظن المتمسكون بحرفية الألفاظ والنصوص أن هذا بعد عن الدين أو نقض له، وأن المنقوض هو الدين نفسه. أما الحقيقة فهي أن هذه العلوم الروحية والأذواق الصوفية كانت محل ضعف في عقولهم؛ وأن المنقوض هو ذوق قديم حل محله ذوق جديد فالشعر أني يقول: (أن الولي لا يأتي بشرع جديد ولكنه يأتي بالفهم الجديد)[1].

ولو جلا هؤلاء الناقدون مرآة قلوبهم كما جلاها الصوفية والتمسوا صوراً من هذه المثل العليا الصوفية، لوجدوا أن الأساس الذي يستمد منه الصوفية أذواقهم وعلومهم هو الأساس الذي يستمد منه أولئك المتمسكون تعاليم الدين ولوجدوه معقولاً مقبولاً ولوجدوا أنهم يقتربون به من صميم الدين.

الكشف الباطني ونظرية المعرفة

لما ظهرت طرائق الكلام وتصدت إلى شرح العقائد الدينية، وبرهنت على صحتها في طريق النظر العقلي، وبالرغم من تطور الحياة العقلية العربية لم تصل إلى مرتبة تطمئن إليها قلوب جميع المسلمين. فمن أجل ذلك توجهت بعض النفوس إلى التعرف بالخالق والاتصال به

---

[1] الطبقات الكبرى للشعراني.

لا عن طريق النظر العقلي وحده بل بطريق الكشف الباطني والمشاهدة أيضاً، فعمد الصوفية إلى المجاهدة في سبيل الوصول إلى هذه الغاية والقصد منها نحو كل ما يحول دون الاتصال المباشر من العلائق المادية وهتك أستار الحجب التي تقوم بين عالمي الملك والملكوت. فالمسلم التقي العابد شديد الحاجة إلى التقرب إلى الله ليتمكن من القيام بخدمته عن قرب منه؛ وليحظى بمشاهدته وليسعد بمعرفته بدون وساطة البرهان العقلي في بيان الحقيقة ولا الاقتناع الحسي، ولكن بالمعرفة الدقيقة، ووسيلة الصوفية في ذلك لا تكون إلا بالنأي عن كل شيء سواه. وهذه هي السعادة والغبطة التي يدركونها في مقام الشهود، ينكشف للروح في ذلك المقام الغطاء فتدرك في العلوم ما لا يدرك صاحب الحواس. فالمواهب الربانية والعلوم اللدنية من حقائق الوجود التي تغيب عن الحس وتغيب عن النظر، وفي ذلك يقول أبو الحسن الشاذلي: الحقائق هي المعاني القائمة في القلوب، وما اتضح لها وانكشف من الغيوب، وهي منح من الله تعالى وكرامات وبها وصلوا إلى البر والطاعات ودليلها قول رسول الله "صلى الله عليه وسلم" لحارثة كيف أصبحت؟ قال أصبحت مؤمناً حقاً (الحديث).

ومن أقوال أبو الحسن الشاذلي: العلوم التي وقع الثناء على أهلها، وإن جلت فهي ظلمة في علوم أهل التحقيق وهم الذين غرقوا في تيار بحر الذات وغموض الصفات فكانوا هناك بلا هم، وهم الخاصة العليا الذين شاركوا الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام في أحوالهم، فلهم فيها نصيب على قدر إرثهم من مورثهم. قال النبي "صلى الله عليه

وسلم": (العلماء ورثة الأنبياء) يقومون مقامهم على سبيل الحكمة، لا على سبيل التحقيق بالمقام والحال، فإن مقامات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد جلت أن يلمح حقائقها غيرهم.

فمن أمده الله بنور العقل الأصلي شهد موجوداً لا حول ولا غاية بالإضافة إلى هذا العبد، واضمحلت الكائنات فيه، فتارة يشهدها فيه كما يشهد البناء بنية في الهواء بواسطة نور الشمس؛ وتارة لا يشهدها لانحراف نور الشمس عن الكوة. فالشمس التي يبصر بها هو العقل الضروري بعد إمداده بنور اليقين، وإذا اضمحل هذا النور ذهبت الكائنات كلها وبقي هذا الموجود. فتارة يفنى وتارة يبقى. حتى إذا أريد به الكمال نودي فيه نداء خفياً. لا صوت له فيمد بالفهم عنه. إلا أن الذي يشهده غير الله تعالى ليس من الله في شيء. ثم قال أوصاني أستاذي رحمه الله تعالى فقال: حدد بصر الإيمان تجد الله في كل شيء؛ وعند كل شيء، ومع كل شيء، وفوق كل شيء، وقريباً في كل شيء، ومحيطاً بكل شيء. بقرب هو وصفه، وبإحاطة هي نعته وعد عن الظرفية والحدود، وعن الأماكن والجهات، وعن الصحبة والقرب بالمسافات، وعن الدور بالمخلوقات وأمحق الكل بوصفه الأول والآخر والظاهر والباطن. كان الله ولا شيء معه.

فطريق المحبوبين الخاصة بهم ترق منه إليه به فمحال أن يتوصل إليه بغيره، فأول قدم لهم بلا قدم إذا ألقى عليهم نور ذاته. فغيبهم بين عباده وحبب إليهم الخلوات. وصغرت لديهم الأعمال الصالحات وعظم

عندهم رب الأرضين والسموات، فبينما هم كذلك. إذ ألبسهم ثوب العدم فنظروا فإذا هم لا هم، ثم أردف عليهم ظلمة غيبهم عن نظرهم. فصار نظرهم عدماً لا علة له. فانطمست جميع العلل وزال كل حادث فلا حادث ولا وجود. بل ليس إلا العدم الذي لا علة فيه وبقي من أشير إليه لا وصف له ولا صفة ولا ذات، واضمحلت النعوت والأسماء والصفات كذلك، فلا اسم ولا صفة ولا ذات.

فهناك ظهر من لم يزل ظهوراً لا علة فيه، بل ظهر بسره لذاته في ذاته ظهوراً لا أولية له بل نظر في ذاته لذاته في ذاته؛ وهناك يحيا العبد بظهوره حياة لا علة لها. وصار أولاً في ظهوره لا ظاهراً قبله. فوحدت الأشياء بأوصافه وظهرت بنوره في نوره سبحانه وتعالى ثم يغطس بعد ذلك في بحر بعد بحر، إلى أن يصل إلى بحر السر فإذا أدخل بحر السر غرق غرقاً لا خروج له منه أبد الآباد؛ فإن شاء الله تعالى بعثه نائباً عن النبي "صلى الله عليه وسلم" يحيي به عباده وإن شاء ستره، يفعل في حكمه ما يشاء.

فإذا أمد الله العبد بنور أسمائه قطع ذلك كلمح البصر، أو كما شاء الله تعالى نرفع درجات من نشاء. ثم أمده الله تعالى بنور الروح الرباني. فعرف هذا الموجود فرقي إلى ميدان الروح الرباني. فذهب بجميع ما يتحلى به هذا العبد وما تحلى عنه بالضرورة، وبقي كلا موجود ثم أحياه الله بنور صفاته فأدرجه بهذه الحياة في معرفة هذا الموجود الرباني فاستنشق من مبادئ صفاته كاد يقول (هو الله) فإذا ألحقته العناية الأزلية

نادته. إلا أن هذا الموجود هو الذي لا يجوز لأحد أن يصفه، ولا أن يعبر عنه بشيء في صفات لغير أهله، لكن بنور غيره.

فإذا أمده الله بنور سر الروح، وجد نفسه جالساً على باب ميدان السر فرفع همته ليعرف هذا الموجود الذي هو السر فعمي عن إدراكه فتلاشى بجميع أوصافه كأنه ليس بشيء، فإذا أمده الله تعالى بنور ذاته. أحياه حياة باقية لا عاقبة ولا غاية لها فينظر جميع المعلومات بنور هذه الحياة ووجد نور الحق شائعاً في كل شيء لا يشهده غيره فتؤدى من قرب. لا تغتر بالله فإن المحجوب في حجب عن الله بالله، إذ محال أن يحجب غيره، وهنالك يحيا حياة استودعها الله تعالى فيه؛ فالصوفية يؤمنون بالكشف الباطني ويؤمنون بإلهامات الروح، ويجعلون هذه الإلهامات وسائل وغايات للإرشاد والهداية، ولقد شغلت هذه المسألة رجال الفكر الإسلامي كما شغلت غيرهم قبلهم من المفكرين والفلاسفة.

وكان فلاسفة اليونان الماديون لا يرون للمعرفة باباً غير الحواس الخمس المتصلة بالعالم الخارجي ويقولون أن ليس فوقها مصدر تهبط منه المعرفة غير الخيال والتصور، فلا يؤمنون بالكشف الباطني ويسخرون ممن يقولون بغير ذلك من أرباب القلوب والرياضة العقلية حتى كانوا يتمنون زيادة هذه الحواس الخمس ليتمكنون بها من إدراك جمال الكون وأسرار الوجود الظاهر أكثر مما أدركوا بهذه الحواس.

وعلماء الدين تمسكوا بما جاء به الرسل والأنبياء وما أخبروا به من أنباء الغيب.

والفلاسفة العقليون قالوا: ليس هناك وسائل لمعرفة الحقيقة غير المنطق والعقل، والعلماء قالوا: إن طريق المعرفة هي الكشف العلمي التجريبي ووسائله وأدواته، أما الصوفية: فقد ذهبوا للكشف عن الحقيقة بطريق الوجدانيات من داخل النفس بإيقاد مشعلها والنظر فيها محاولين التوفيق بين هذه الطرائق وحجتهم في ذلك قول سقراط (اعرف نفسك بنفسك) وما أثر عن النبي "صلى الله عليه وسلم" (من عرف نفسه فقد عرف ربه) وهم بذلك يحاولون الجمع بين الفلسفة والدين والعلم وبين ما هو من حظ العقل وما هو من حظ القلب وما هو من حظ التجارب؛ لذلك أهملوا الظواهر الخارجية المحيطة بالإنسان المدركة بواسطة المشاعر الخمس وجعلوا طريق الإدراك الحقيقي من القلب؛ فالقلب هو الذي يفيض بالمعرفة الحقة وكل ما تأتي به الحواس ليس إلا خداع وغلط.

ولقد أشاد الغزالي بمعرفة القلب ودافع عنه في كتاب الأحياء، وأتى بكثير من البراهين الشرعية والحجج العقلية والنقلية على صحة طريق الصوفية. وتكلم عن اكتساب المعارف بالإلهام، وذكر كثيراً من شواهد الشرع والتجارب وأظهر أن روح الإسلام لم تكن ضد الصوفية ولا خصماً لهم في مشاهداتهم وإدراكهم.

وقد استطاع الغزالي أن يبني للصوفية صرحاً متيناً وركناً حصيناً، واستطاع أن يجعل من التصوف علماً واضحاً مهذباً لتفوقه العلمي ولدراسته المستفيضة للعلوم الفلسفية وللمذاهب الدينية وللمسائل

التقليدية والجدلية. لأنه يؤمن بأن معارف الباطن طريق الهداية لأنها اتصال مباشر بالحقائق الخالدة والأسرار النورانية، وصلة مستمرة بين العبد وربه أساسها المحبة المتبادلة والإلهامات المشرقة وهو الذي يقول عن علم الباطن أنه غاية العلوم.

وقال أن هذه العلوم هي التي أرادها النبي "صلى الله عليه وسلم" بقوله: إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا أهل المعرفة بالله فإذا انطقوا به لم يجهله إلا أهل الاغترار بالله، وقال أيضاً "صلى الله عليه وسلم" أن للقرآن ظاهراً وباطناً وحداً ومطلقاً، وقال علي "رضي الله عنه" وأشار إلى صدره. أن ها هنا علوماً لو وجدت لها حمله. وقال ابن عباس في قوله تعالى "الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن" لو ذكرت تفسيره لرجمتموني، وقال أبو هريرة حفظت عن رسول الله وعائين، أما أحدهما فبثته، وأما الآخر لو بثته لقطع هذا الحلقوم، وقال رسول الله "صلى الله عليه وسلم" ما فضلكم أبو بكر بكثرة صيام أو صلاة ولكن بسر وقر في صدره.

وأن الشرع عبارة عن الظاهر والحقيقة عبارة عن الباطن ولا تناقض بينهما ولا خلاف، وإنما الخلاف هو اختلاف العقول والأفهام والظرف والمكان فإذا تمثل الإنسان شخصاً مثلاً أمام عينيه في الظلمة أو عن بعد كان له نوع من العلم وإذا رآه عن قرب أو بعد زال الظلام كان إدراكه أوفى من ذي قبل.

وكان مالك يقول ليست المعرفة بكثرة الرواية ولكنها نور يضعه الله

تعالى في القلب، فالمعرفة عند الصوفية غير العلم أيضاً، لأن العلم أداته العقل وأداة المعرفة عندهم القلب أو قوة كامنة فيه. ويؤيد العلم الحديث صراحة رأي الصوفية والروحانيين ويخالف الماديين، كذلك فالعلم القائم على الاستقرار والمشاهدة، يقرر أن للمعرفة وسائل أخرى غير وسائل الحواس، ويقرر أن هناك إلهامات روحية خارجة وغامضة لا سبيل إلى معرفة أسرارها ولا إلى إنكارها ولا إلى التكهن عليها.

ولقد عجز الماديون عن إنكار العقل الباطني وعن إنكار التنويم المغناطيسي، وعجزوا عن تشكيك النفوس فيهما، وظهر أنها ضرب من ضروب الأرواح السابحة التي لا يمكن للأرواح البشرية أن تلتقي بها وتتحدث إليها وترشف من نبعها ومعارفها.

ودل العلم الحديث على أن الوسيط بعد أن ينام مغناطيسياً تتعطل حواسه وتتقمصه شخصية أرقى، شخصية لها روح عاقلة واسعة الإدراك سامية المعارف تتحدث عن أدق المسائل وأغمض المسالك. ودل العلم الحديث في مسألة العقل الباطني على مشاهداته أن العقل الباطني كثيراً ما ينفذ شعاعه في ناحية خاصة تكون خاطفة فالحسابون على البديهة تلقى إليهم المسائل الدقيقة الغامضة التي تحتاج إلى تفكير وعمل، فيجيبون عليها الجواب الصحيح، ولا يدري العلم كيف ومتى حصل الحل وهناك أطفال يوقعون على الموسيقى ألحاناً يعجز أئمة الفن عن توقيعه، ولا يعرفون كيف صنع أولئك الأطفال هذا اللحن ولا كيف تم توقيعه.

وذكروا أن (موسيه) الشاعر كتب عن نفسه فقال أنا لا أعمل ولكني أسمع فأفعل، فكأنما إنساناً مجهولاً يناجيني في أذني، وكذلك (لامارتين) كان يقول لست أنا الذي يفكر ولكن أفكاري التي تفكر لي، وكان (رينيه) الشاعر يقول أنه كان ينام غالباً وهو يضع قطعة من الشعر فيستيقظ فيجدها تامة في اليوم التالي عندما يفكر فيها، وكان (سقراط) يسمع بأذنيه ما تلقيه إليه الروح.

ومذهب المتأملين في العلم الحديث أيضاً يؤمن بالتأمل ويفضله على القراءات والدراسات، ولا تنسى مدرسة (أفلوطين) التي قامت على المناجاة الروحية والاتصال بالله، ولا (مالبرانش) الذي يقول باتصال مستمر بين العبد وربه، ويقول أن المعرفة ليست إلا فيضاً من الله، ويقول أن ما يبدو من العالم الخارجي ليس إلا ظروفاً ومناسبات لتحقيق إرادة الله؛ فالمخلوق يتلاشى في الخالق ويندمج الأثر في المؤثر، وحتى (أرسطو) الذي كان واقعياً في بحثه ورجل مشاهدة وتجربة في استنباطه انتهى به الأمر أخيراً في دراسته النفسية فبناها على شيء من الفيض والإلهام.

فالصوفية يستطيعون بشعور روحي وإشراق باطني يشع نوره في جوانب القلب أن يصلوا إلى المعرفة، وذلك الإشعاع يكشف عن الحقيقة ويكفي حينئذ أن يثبت وجودها فهم يدركون بواسطة الذوق لا بواسطة العقل (وحده الله في ذاته وصفاته وأفعاله) وأنه الموجود والحق وكل ما عداه باطل.

والصوفي الحق لا يقيم وزناً للظاهر، ولا يستقيم إغفال الظاهر إلا لمن يؤمن إيماناً جازماً بأن هناك حقيقة علوية خليقة بأن تشغله عن كل ما سواها في الوجود.

والحقيقة العليا عند الصوفي الحق هي (الله) وهي الحقيقة الخالدة الثابتة، وهي مصدر كل موجود، وأصل كل كائن فالله هو واجب فالوجود في ذاته ولا قدم لمخلوق في هذه الصفة وكل ما سواه ليس له ذلك الوجوب الذاتي، وكل ما ليس له وجود ذاتي فهو باطل زائل.

والألوهية عند الصوفي الحق كما يفهمها هي استغراق كامل للوجود بأسره، وذلك تنزيه رفيع أخضع مادته لروحانيته فأخرجها عن حدود الزمان والمكان وفي ذلك المقام استولى الله على قلبه، وملك عواطفه وأحاسيسه فاستغرق ذاته ووجوده فهو لا يرى إلا بدائع آياته وسريان مظاهر آثار فعالة، ومثل هذه العبادة، هي عبادة الحب والإجلال هي عبادة التوحيد. فناء في الله وفناء في الحقائق الخالدة، وفناء في السر الإلهي.

الحب والفناء

ذلك الحب الذي يربط الخالق بالمخلوق، ويربط العبد بالمولى هو سر الحياة وسر الإيمان والفناء في الله هو فناء الجزء في الكل ففناء العاشق في المعشوق؛ فالحب هو الذي سيطر على أفئدة الصوفية وأفكارهم، فلم يستطيعوا التحرر منه فهم رغماً من أنهم استطاعوا التحرر

من لذات الدنيا واستطاعوا التخلص من شوائب المادة ومن شهوات النفوس، لم يستطيعوا التخلص من الحب، وهكذا نرى المحب في موقعته ساجداً. ذاهلاً يرقب الآفاق فلا يرى فيها غير محبوبه، طويت السموات وزويت الأرضين. واختفت معالم الحياة فاختصرها في كلمة واحدة هي (الله).

وما دامت غاية الصوفي الحق، هي الحق، وهو الله، فهو لا يرضى بغيره بديلاً ولا يعنيه ثوابا ولا عقابا ولا يغريه طمع من نعيم الجنة ولا خوف من عذاب النار، فإذا هو في ذلك المقام دائم الحضور مع الله؛ دائم الشهود لله؛ فهو يدرك الله في كل شيء ويسمعه في كل شيء، ونفسه من جملة الأشياء، وهو يدرك الله في كل ما تفعله هذه النفس وما تريده، يتجلى له عرش الرحمن في قلبه؛ كما يتجلى في الأرض، وكما يتجلى في السماء، بل ربما كان تجليه له في قلبه أبلغ وأكمل، وهاتان الحالتان هما حالتا الحب والفناء في التوحيد.

والفناء[1]

والفناء عند الصوفية هو تمام إنكار الذات وهو على ثلاث درجات:

(١) فناء أهل العلم.

---

[1] هذا الباب ملخص من كتاب مدارج السالكين لابن القيم عند عرضه لنظرية المعرفة عند الصوفية، ومن تعليق الأستاذ سعيد زايد عليها بمجلة الأزهر.

(٢) فناء أهل السلوك والإرادة.

(٣) فناء أهل المعرفة المستغرقين في شهود الحق.

فأول الأمر أن تفني قوة علمه وشعوره بالمخلوقين في جنب علمه ومعرفته بالله وحقوقه، ثم يقوى ذلك حتى يغيب عنهم بحيث يكلم ولا يسمع، ويمر به ولا يرى وهو أبلغ عندهم في حالة السكر، وفناء أهل المعرفة على ثلاث درجات:

(١) فناء المعرفة في المعروف وهو الفناء علماً.

(٢) فناء العيان في المعاين وهو الفناء جسداً.

(٣) فناء الطلب في الوجود وهو الفناء حقاً.

فالأول– غيبة المعارف بمعروفه عن شهوده بمعرفته ومعانيها، فيفني به سبحانه عن وصفه هنا، وما قام به، فإن المعرفة فعله – ووصفه فإذا استغرق في شهود المعروف فني عن صفة نفسه وفعلها، ولما كانت – المعرفة فوق العلم وكانت أخص منه كان فناء المعرفة في المعروف مستلزماً لفناء العلم – في المعرفة، فيفنى أولاً ثم تفنى معرفته في المعروف.

(والثاني) هو فناء العيان في المعاين، فالعيان فوق المعرفة، لأن المعرفة فوق العلم ودون العيان، فإذا انتقل من المعرفة إلى العيان فني

عيانه في معاينته كما فنيت معرفته في معروفه.

(والثالث) فناء الطلب في الوجود فهو ألا يبقى لصاحب هذا الفناء طلب لأنه ظهر بالمطلوب المشاهد وصار واجداً بعد أن كان طالباً وكان إدراكه أولاً علماً ثم قوي فصار معرفة ثم قوي فصار عياناً ثم تمكن فصار وجوداً.

وقد ميز الصوفية كيفية المعرفة كذلك إلى ثلاثة درجات:

(١) معرفة القلب.

(٢) معرفة الروح.

(٣) معرفة السر.

والحب

والحب عند الصوفية هو واسطة الأسباب وهو علة العلل، فلا تجد شيئاً قام عندهم إلا على الحب. فإذا كان الصوفي قد استطاع أن يهجر لذائذ الدنيا وقيودها، فهو لا يستطيع أن يتحرر من قيود الحب. بل الحب معبوده الأول، إياه يناجي وله يدعو، وما كانت الآيات الصوفية لو تبيناها، ودعوات الصوفية الخاصة في مقاماتهم لو أمعنا فيها، إلا نشيداً فجر معانيه الحب ونضد آياته الشوق والوجد؛ فإذا حديثهم كله هوى، وإذا العالم في نظرهم بين محب ومحبوب، وفي المحبة يقول بعضهم —

المحبة سكر لا يصحو صاحبه إلا بمشاهدة محبوبه.

ويقول الآخر– المحبة استهلاك في لذة، والمعرفة شهود في حيرة وفناء في هيبة، ولقد مدح بهذه النغمات الكثير من الصوفية ولو أنها في شيء من التفاوت، وفي عبارات تقارب أحياناً وتغمض عن الأخرى أحياناً ألا إنها كلها تشير إلى معنى واحد؛ وكلها صادرة من غلبة وجد هاج وتغلب على الفؤاد، فأدى إلى الفناء في الحب قل قائلهم

صداحة إلا بك ما أشجاك أشجانا   نوحي بشكواك أو نوحي بشكوانا

وفي محبة الله يقول في التعريف بها، حقيقة المحبة قيامك مع محبوبك بخلع أوصافك والاتصاف بأوصافه، فإذا استولى الحق على قلب عبد أخلاه عن غيره، وإذا لازم أحداً أفناه عمن سواه.

والمحبة – فيما يقول الغزالي – طبيعة مشتركة كمحبة الجائع للطعام، والظمآن للماء، ومحبة إشفاق كمحبة الوالد لولده، ومحبة أنس وألفة كمحبة المشتركين في صناعة واحدة أو علم واحد أو مرافقة أو تجارة، وكلها تستلزم التعظيم والإيثار في وجودها في الإنسان مع محبة الله.

ولقد كان رسول الله "صلى الله عليه وسلم" يحب الحلوى والعسل "ويحب الطيب والنساء"، وكانت عائشة أحبهن إليه؛ وكان يحب أصحابه والصديق أحبهم إليه.

أما المحبة التي لا تصح إلا لله فهي محبة العبودية المستلزمة للذل والخضوع والتعظيم كما قال الله تعالى (والذين آمنوا أشد حباً لله).

وهذه بعض الأمثلة ففيما يروى عن مالك بن دينار أنه قال– حبس عنا المطر حتى هلك الزرع وأخذنا الظمأ فاستقينا مراراً فلم نسق، فانصرف الناس وبقيت في المصلى أدعو الله، فلما أظلم الليل إذا أنا برجل أسود دقيق الساقين عظيم البطن، فصلى ثم رفع رأسه إلى السماء فقال – سيدي إلى كم ترد عبادك فيما لا ينقصك. أنفذ ما عندك. أقسمت عليك بحبك لي إلا سقيتنا الساعة. فما أتم كلامه حتى أمطرت الدنيا كأفواه القرب فتعرضت له فقلت أما تستحي تقول بحبك لي، وما يدريك أنه يحبك قال– يا من أشتغل عنه بنفسه أين كنت أنا حين خصني بتوحيده (تراه بدأني بذلك إلا لمحبته لي. ألا تعلم أن الله واسع المغفرة. عظيم المحبة لعباده. ألم تسمع قوله تعالى (هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا) تدبر أيها الإنسان أن الله وملائكته يصلون علينا. لتعلم أي حب عند الله لنا (إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) ويحب العابدين ويحب أن تعرف أنه يحبنا.

وهذا أبو يزيد البسطامي يقول: "إِنَّ لِلَّهِ خَوَاصًّا مِنْ عِبَادِهِ لَوْ حَجَبَهُمْ فِي الْجَنَّةِ عَنْ رُؤْيَتِهِ ، لاسْتَغَاثُوا بِالْخُرُوجِ مِنَ الْجَنَّةَ، كَمَا يَسْتَغِيثُ أَهْلُ النَّارِ بِالْخُرُوجِ مِنَ النَّارِ" ويقول الناس "يفرون من الحساب وأنا أتمناه لعله يقول لي يا عبدي فأقول لبيك ثم بعد ذلك يفعل بي ما يشاء"،

ويقول "رفعني الحق فأقامني بين يديه" وقال لي يا أبا يزيد إن خلقي يحبون أن يروك فقلت زيني بوحدانيتك وألبسني أنانيتك وارفعني إلى أحديتك حتى إذا رآني خلقك قالوا رأيناك. فتكون أنت ذاك ولا أكون أنا هناك، وقيل سمع أبو يزيد رجل يكبر، فقال له ما معنى الله أكبر. قال أكبر من كل شيء. قال ليس معه شيء فيكون أكبر منه. قال الرجل فما معناه. قال الله أكبر من أن يقاس بالناس أو يدخل تحت القياس أو تدركه الحواس.

والحب عاطفة ووجدان ولا يستقيم إلا بحال وذوق، وعوامله وأسبابه تنبعث من القلب، وقد لا يدرك العقل حدودها ومداها حتى أنه طالما ظلت هذه العوامل عسيرة الحل على الأسباب نفسها؛ فإذا كان هذا من الحب بالنسبة إلى المخلوقين فما بالك بحب من ليس كمثله شيء. وهذه رابعة العدوية تأثرت بمقام الحب فكانت تقول:

إني جعلتـــتك في الفـــؤاد محدثي وأبحـت جسمي من أراد جلوسي

فالجسم مني للجليـــس مؤانسي وجعـلت حبك في الفؤاد أنيسي

ولما تطور بها مقام الحب كانت تحب الله لذاته ولذات الحب غير ناظرة إلى مغنم من ورائه وكانت تقول:

أحبــك حبــين حــب الهــوى وحـــب لأنـــك أهـــل لـــذاكا

فأمـا الـذي هـو حـب الهـوى فشـغلي بـذكرك عمـن سـواكا

وأمـا الـذي أنـت أهـل لـه فكشفك لي الحجب حتى أراكا
فـلا الحمـد فـي ذا وذاك لـي ولكـن لـك الحمـد في ذا وذاكـا

بهذا الحب الصوفي يكتمل التحقق الموحد والنماء للشخصية؛ وذلك بواسطة نذر الإنسان نفسه (لله) وبهذا الاصطفاء الذي تهبه قوى النفس حريتها النهائية فتجعلنا تشق نطاق العالم المكاني والزماني كيما نستشعر ونتذوق حضرة موحدة خصوصاً حينما يستحيل العشق إلى عشق الله.. أضف إلى ذلك حينما يكون العشق دينياً يهدف إلى غاية مفروض أنها عالية على الكون، وفي ذلك كان الحلاج يقول:

كانت لنفسـي أهواء مفرقة فاستجمعت مذ رأتك العين أهوائي

فإذا بحثنا القانون الكلي للعالم، وأخذنا العالم جملة، لا يعترينا شك في أن أسباب هذه الاختلافات والبيئة المشاهدة التي تبقي هذه الاختلافات أو تزيلها يرتبط بعضها ببعض، ولا يمكن ربط الأسباب المؤثرة في هذه الدوائر الكبيرة بعضها ببعض إلا من وجهة النظر العامة الشاملة للعالم كله. فالحياة كلها حب والوجود كله يعمل بين محب ومحبوب، فإذا اعتبرنا هذه الحقيقة لزمنا معرفتها.

وهذا ابن الفارض يقول في وصف استحضار محبوبه:

تراه إن غاب عني كل جارحـة في كـل معنى لطيف رائق بهـج
لم أدر ما غربة الأوطان وهو معي وخـاطري أيـن كنـا غيـر منـزعج

ويقول وهو يسعى لتفريغ قلبه من وجوده الذاتي، ويقصر خطراته النفسية على الشغل بمحبوبه عساه يظفر منه بخلوة روحية.

جرى حبها مجرى دمي في مفاصلي	فأصبح لي عن كل شغل بها شغل
تأس ببذل النفس فيها أخا الهوى	فإن قبلتها منك يا حبذا البذل
فمن لم يجد في حب (نعم) بنفسه	ولو جاد بالدنيا إليه انتهى البخل
ولولا مراعاة الصيانة غبرة	ولو كثروا أهل الصيانة أو قلوا
فقلت لعشاق الملاحة أقبلوا	إليها على رأيي وعن غيرها ولوا
وإن ذكرت يوماً فخروا لذكرها	سجوداً وإن لاحت إلى وجهها حلوا
وفي حبها بعت السعادة بالشقا	ضلالاً وعقلي عن هداي به عقل

وهذا ابن عربي يقول: ما في الموجودات إلا محب، فالعالم كله محب ومحبوب، وما أحب أحد غير خالقه، ولكن احتجب بحجب: زينب، وسعاد، وهند، وليلى، والدنيا والدرهم والجاه. وكل محبوب في العالم، فإن الحب سببه الجمال وهوله، لأن الجمال محبوب لذاته والله جميل يحب الجمال، فيحب نفسه، وسببه الآخر الإحسان وما ثم إحسان إلا من الله. فإن أحببت الإحسان فما أحببت إلا الله، فإنه المحسن، وإن أحببت الجمال فما أحببت إلا الله، فإنه الجميل، وإنما أخرج الله العالم ليكون مرآته يرى فيه نفسه فما أحب إلا نفسه.

هذه الأفكار ملكت قلب ابن عربي، وتطورت به حتى أضحى يحب الإنسانية جمعاء لأنها أشرف أنواع المخلوقات التي أودع فيها

العقل والمعرفة، والمخلوقات صنعة الله والمرآة التي يرى فيها نفسه كما تقدم في أقواله، ولما ظهرت منه هذه البوادر، وقال أنه يحب الإنسانية جميعها بصرف النظر عن اختلاف أديانها. قال خصومه أنه يقول بوحدة الأديان وفي هذا ما يخالف الدين، واعتقد أنه لا يقصد إلا العطف والرحمة بالإنسانية بلا تفرقة بين الدين والجنس واللون والدم. إذ لو كان قصد القول بوحدة الأديان لما كان يتمسك بقواعد الإسلام ويؤدي العبادات ويجادل بالقرآن والحديث ويؤمن بالأحكام ويحث على العمل بها.

أما أنه كان يؤديها ليعيش بين الناس فذلك ما لم يفعله مثله من أصحاب الأفكار الحرة، وكان باستطاعته أن يعيش بالممالك الصليبية التي كانت في قلب البلاد الإسلامية بحالة أهنأ وأسعد. لقد كان عصره عصر حروب وكروب وتخريب وتدمير وإهلاك للبشرية بسبب الاختلافات الدينية والمذهبية، ولم تجن الإنسانية من وراء ذلك إلا الويلات والفناء، وكان مشفقاً عليها من هذه الحالة، وها نحن اليوم وبعد سبعة قرون وأكثر ننادي على اختلاف أدياننا وأجناسنا وألواننا بالعطف والرحمة بالإنسانية، ونعد العمل بهذه الأفكار عملاً إنسانياً اجتماعياً قوامه الإخلاص التام ومحبة الإنسانية وهي من وحي السماء، فإذا أصيب بعض القوم بكوارث من الجوع والعري والتشريد. قام الناس على اختلاف أديانهم بتقديم المساعدات المادية التي تخفف عنهم الويلات والآلام، وتحركت قلوب العالمين لأداء هذا الواجب الإنساني.

أرأيت أيها القارئ في بطون التاريخ مثل هذه الأعمال والأفكار في العصر الذي كان يعيش ابن عربي فتش التاريخ فلن تجد شيئاً مذكوراً، ولكن اليوم ترد الإعانات والغوث من جميع بقاع العالم على اختلاف أديانه إلى المكروبين والمنكودين. أتكون هذه اليوم خلاصة الأفكار الإنسانية وغاية الإيمان بالعطف والرحمة بها، وتكون فيما مضى عقيدة ملحدة كافرة لا تؤمن بتوحيد الله ورسله واليوم الآخر؟

ماذا قال ابن عربي في هذا الموضوع منذ أكثر من سبعة قرون؟ قال وهو مشفق على الإنسانية المعذبة من جراء الحروب الدينية.

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة	فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف	وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت	ركائبه فالحب ديني وإيماني

لقد كان يرى الرحمة فوق العدل، ولقد نشأت عنده هذه الفكرة من غلوه في نظريته في المحبة. والمحبة يذهب إليها كثير من العلماء غير الصوفية، حتى أن ابن القيم خصم الصوفية وخصم ابن عربي وأمثاله، يذهب مذهباً في المحبة ويحاول حل مشكلة التوفيق بين الإرادة الإلهية والإرادة الإنسانية؛ فيقول في كتابه (طريق الهجرتين) ما ملخصه: خلق الله العالم، وأحب من خلقه عبادته التي هي كمال المحبة، فالله يحب نفسه أعظم محبة، ويحب من يحبه، وهناك عقد إلهي بين الله وعباده وسبيله المحبة، ومحبة الله من أقوى الأسباب في الصبر على مخالفته

ومعصيته؛ فإن المحب لمن يحب مطيع، وكلما قوي سلطان المحبة في القلب كان اقتضاؤه الطاعة وترك المخالفة، وإنما تصدر المعصية والمخالفة من ضعف سلطانها، والمحبة تقتضي إيثار المحبوب في إرادته بأن يبقى مراده من مراد محبوبه.

فهو لم ينكر ما للمحبة من الأثر والتأثير، وإن كان لا يرى الاسترسال مع العاطفة الوجدانية التي هي من العوامل النفسية الفعالة؛ وهذه العاطفة وهذه العوامل هي التي ساقت الصوفية إلى حالات الوجد فسكروا بها حتى انساق بعضهم إلى الشطح لغلبة الغليان والاحتراق بنار العشق، والصوفية أنفسهم يقولون أن لهم حالتين:

(١) حالة الصحو وفيها ينطقون بالشريعة ولا يحيدون عنها.

(٢) وحالة المحو أو السكر أو الغيبوبة وهم فيها يعبرون عن الوجدانيات المكبوتة في حالة الصحو وهي التي يعرفونها "بالحقيقة" تأتي عفواً من غير قصد منهم وقد تصدر منهم شطحات ينكرونها على أنفسهم بعد أن يردوا إلى حالة الصحو؛ فأمثال هؤلاء الصوفية هم عباد الرحمن الذين سموا بدنياهم وارتقوا بحياتهم إلى نور ربهم، فعاشت أرواحهم حول العرش ونهلت من رحيق الحب، وتغذت بثمار المعرفة. فأشرقت في قلوبهم فيوض رحمته وأسرار حكمته، فشفوا ووفوا حتى خضعت عادتهم لروحانيتهم، فخرجوا من مقاييس الزمان والمكان إلى قدس أسرار الإيمان وهم قوم قد غمرهم النور الإلهي فتعلقت أبصارهم

بالله فأفناهم عن كل ما سواه، فما رأوا في الوجود سواه وتعلقت قلوبهم به، فما يتلذذون بالجنة إلا إذا تنعموا برؤيته سبحانه، وقد فهموا الألوهية على أنها استغراق كامل للوجود بأسره وعلى أنها تنزيه مطلق رفيع، فهو توحيد من لون جديد.

هذا اللون الجديد هو الذي قال فيه من لم يتذوق طعمه وفهمه هو (وحدة الوجود) وهو الذي قال فيه خصوم الصوفية أنهم أخذوه عن اعتقادهم مقالات الفلاسفة الملحدين القائلين بالحلول والاتحاد، ولم يتبين خصوم الصوفية الفروق الجوهرية الموجودة بين مذهب الفلاسفة ومذهب الصوفية فيه.

يتفق المسلم العادي ويتفق الصوفي على أن الله واحد، والأول يعني بذلك أنه واحد في ماهيته وصفاته، والثاني يرى أن الله هو الواحد الحقيقي الذي لا يوجد غيره في الكون؛ فهو يتضمن كل الظواهر الأخرى، والصوفي يريد أن يعرف الله ويعرف كل أسرار الوجود في نفسه، فهو يعد نفسه عالماً صغيراً، فيشعر من ذلك بشبه اتحاد

قال بعض مؤرخو التصوف أن مؤسس مذهب (وحدة الوجود) في التصوف هو ابن عربي وهو الذي نظم أبوابه ووضع له القواعد، ولكن ابن عربي لم يكن أول من تكلم في هذا الباب فإن أبا مدين التلمساني تكلم في ذلك من قبل شعراً فقال:

الله قال وذر الوجود وما حوى إن كنت مرتاداً بلوغ كمال

فالكـــــل دون الله أن حققتـــه	عدم على التفصيل والإجمال
مـن لا وجـود لذاتـه فـي ذاتـه	فوجـوده لـولاه عـين محـال
والعـارفون فنـوا بـه لـم يشـهدوا	شـيئاً سـوى المتكبـر المتعـالي
ورأوا سـواه علـى الحقيقـة هالكـاً	في الحال والماضي والاستقبال

وكان الغزالي يتكلم في ذلك بشكل آخر هو عنده علم (الحقيقة) وأشار إلى ذلك فقال العارفون بعد العروج في سماء الحقيقة اتفقوا على أنهم لم يروا في الوجود إلا الواحد الحق، واستهوت عقولهم الفردية فصاروا كالمبهوتين فيه، ولم يبق فيهم متسع لذكر غير الله، ولا لذكر أنفسهم أيضاً فسكروا سكراً وقع دونه سلطان عقولهم. فقال بعضهم (أنا الحق) وقال الآخر (سبحاني) وقال غيرهما (ما في الجبة إلا الله) فلما خف عنهم سكرهم وردوا إلى سلطان العقل عرفوا أن ذلك لم يكن حقيقة الاتحاد بل شبه الاتحاد.

أما الذي لا شك فيه أن ابن عربي أقحم التصوف بمذهبه فأصبح لا يعني بالتصوف إلا (وحدة الوجود) وله في هذا العصر نظير يتفق معه تماماً. فقد أعلن شاعر العراق الكبير معروف الرصافي رحمة الله في كتاب (رسائل التعليقات[1] وهو من الذين يؤثرون القول "بوحدة الوجود" ويدافعون عن مذهبها)، فيقول: "وإذا قلنا الصوفية فلا نعني بهم أهل الخانقاه والتكية، ولا هؤلاء الدراويش لابسي الصوف والمرقعات، ولا هؤلاء المشعوذين من حاملي الدبابيس وضاربي الدفوف وناطحي

---

[1] صفحة ١٦.

الجدران بالرؤوس، وإنما نعني بهم رجالاً من المسلمين أولي الأفكار الحرة والنفوس الزكية الطاهرة القائلين "بوحدة الوجود".."

ثم يتحمس للمذهب، فيقول: "ليس حديثي هذا بالمرجم ولا اعتقادي بالمتوهم؛ فقد أصبح لي كالشمس في وأد الضحى، أن محمداً "صلى الله عليه وسلم". جاء بحقيقتين ناصعتين إحداهما "وحدة الإله"، والثانية "وحدة الوجود"، أما الأولى، فقد قالها بمنطوق العبارة، وأما الثانية فقد قالها بمفهوم العبارة لكي يصل إليها أولى المواهب الفطرية العالية إلى الكمال النفسي الذي لا يتم إلا بمعرفة "لا موجود إلا الله".

وحدة الوجود

وحدة الوجود الفلسفية، معناها أن الحقيقة الوجودية واحدة؛ فالكثرة ومظاهر الكون هي كل ما له حقيقة وكل ما له وجود. فالخالق والمخلوق شيء واحد بلا تمييز ما هو طبيعي مما هو إلهي. فهي تحصر الوجود فيما يتناوله الحس، وتقع عليه العين. وتعتبر الله اسماً على غير مسمى حقيقي.[2]

أما وحدة الوجود التي رآها الصوفية، فمعناها أن الحقيقة الوجودية واحدة في جوهرها وذاته متكثرة بصفاتها وأسمائها لا تعدد فيها إلا بالاعتبارات والنسب والإضافات وليس للعالم وجود إلا كوجود الظلال في الأنهار. وكصور المرايا بالنسبة للمرئيات؛ فالعالم كله ليس إلا خيالاً أو حلماً وجب تأويله وفهمه على حقيقته[1] ويقول شاعرهم:

كـل مـا فـي الكـون وهـم أو خيـال ... أو عكوس في المرايا أو ظلال

لاح في ظل السوي شمس الضحى ... لا تكن يا صاح في تيه الضلال

ومعنى هذا أن الوجود المطلق لله، لأنه واجب الوجود في ذاته، والموجودات ظل له لا وجود لها في ذاتها. والرحمة الإلهية هي التي منحت الوجود للموجودات؛ فالله هو الغني وكل الموجودات مفتقرة إليه.

---

[2] أبو العلا عفيفي.

[1] أبو العلا عفيفي.

التعدد والكثرة لا توجب تعدداً في ذات الوجود، كما أن تعدد الإنسان لا يوجب تعدداً في ذات الإنسان فالواجب وجود محض والتعين عدم محض.

تعالى الله عن همم الرجال ... وعن وصف التفرق والوصال

إذا ما جل شيء عن خيال ... يجل عن الإحاطة والمثال

فليس قول الصوفية أن الله في كل شيء أنهم يقصدون بذلك أن الله بكل الأمكنة أو يقع تحت الأزمنة أو يتلبس بشيء في العالم، وقد ظن خصوم الصوفية فيهم أنهم قصدوا هذا المعنى ونقدوهم نقداً مراً بل كفروهم وما كان خصوم التصوف لذاته وحدهم هم دعامة هذا النقد بل كان كثيرون من الفقهاء المتكلمين والمتفلسفين يهاجمون هذا القول لأنه يدل على الحلول والاتحاد وعلى القول بقدم العالم.

وحقيقة لو كان الله محمولاً في غيره لوسعته الأمكنة ولوقع تحت الأزمنة ولكان في استحالة دائمة، ولكان تارة شخصاً وتارة نوعاً وتارة جنساً وتارة فصلاً، ولكان العالم قديماً ولبطلت دلائل الحدوث وشبه ذلك محال. والصوفية لا يقرون مثل هذا الزعم بل رأوا الله متعالياً عن الزمان والمكان منزهاً عن الشبيه والمثيل والند والضد، ويعلمون أن نسبة الزمان والمكان إليه نسبة واحدة؛ فالوحدة التي رأوها تدرك ولا تحس، وتدرك دون أن تحل في شيء أو أن تتحد بشيء فإذا كان الحلول والاتحاد لا يعقلان ولا يجوزان ولا يحتملان أن يقعا في حق أي مؤلف أو مخترع أو صانع من البشر (أي حلوله واتحاده بصنعته) فهما في حق

الله أولى وأجدر.

ومن أمثلتهم على وجود الكثرة في الوحدة أو الوحدة في الكثرة قولهم، إذا انطبعت صورة جزئية واحدة في مرايا متكثرة مختلفة بالكبر والصغر والطول والقصر والاستواء والتقعير والتحديب، وغير ذلك من الاختلافات. فلا شك أنها تكاثرت بسبب هذه الصورة الجزئية الواحدة. والظهور في كل واحدة من المرايا غير مانع أن تظهر بحسب سائرها؛ فالواحد سبحانه ولله المثل الأعلى بمنزلة الصورة الواحدة، والماهيات بمنزلة المرايا المتكثرة المختلفة باستعدادها؛ فهو سبحانه يظهر في كل عين بحسبها من غير تكثر وتغير ذاته المقدسة، ومن غير أن يمنعه الظهور بأحكام بعضها عن الظهور بأحكام سائرها.

وما الوجه إلا واحد غير أنه إذا أنت عددت المرايا تعددا

ولقد أجمع العارفون بالله، على أن الباري تعالى مباين للعالم في جميع الجهات، لا يشبهه شيء ولا يشبه شيئاً. وأن هذه المباينة لا تقتضي تحيزاً بمكان ولا تقتضي انفصالاً، فوجوده في كل شيء لا يقتضي ممازجة واتصالاً، وهذه صفة جلية وصفية لا تحيط بها العقول، وإنما تدرك بما تدل عليه الدلائل كسائر صفات الله التي تثبت ولا تكيف[1].

وثم حالتان، لا يكاد خصوم الصوفية يفرقون بينهما، وكثير من

---

[1] الحدائق للبطليوسي.

العلماء أيضاً هما (وحدة الوجود) و(وحدة الشهود).

أما الأولى فقد بيناها، أما (وحدة الشهود) فهي الحالة النفسية التي يشعر فيها الصوفي حينما يفنى عن نفسه وعن كل موجود فلا يرى سوى الله في وجوده وفي جميع المشاهد الأخرى، فإن مقام الحب لا يدع صاحبه ينظر إلى نفسه ووجوده ولا يدعه ينظر إلى العالم الخارجي بل يصبح الكون كله في نظرة عامراً بوحدة محبوبه[2].

ذكر الفرغاني، أن الوجود كله صادر عن صفة الوحدانية التي هي مظهر الأحدية وهما معاً صادران عن الذات الكريمة التي هي عين الوحدة ليس غير، وسمة الصوفية هذا الصدور (بالتجلي).

ويرى السهروردي المقتول، أن العالم الروحاني صادر عن الملأ النوراني الأقدس، وهذا العالم النوراني مقابل لعالم الظلمة الذي هو عالم المادة.

ويرى آخرون من الصوفية أن الوجود له قوى في تفاصيله، وبهذه القوى كانت الموجودات وموادها كلية وجزئية وأحاطتها بها من كل وجه هي "وحدة الوجود".

وقد اتفق المتصوفون والمتكلمون، على أن الخالق له التأثير في الموجودات، ولكن بعض الصوفية أضاف إلى ذلك أن الخالق عين

---

[2] الدكتور أبو ريدة.

المخلوق والعلة في ذلك قولهم في الصفات.

فالصفات عند الفلاسفة هي عين الذات بمعنى أنهما متحدان حقيقة واحدة.

وعند المعتزلة الذات عين الصفات.

وعند الأشاعرة الصفات زائدة على الذات ولكن الله عالم بعلم قادر بقدره، فالصفات قديمة.

وعند الصوفية الصفات عين الذات بحسب الوجود وغيرها بحسب العقل.

والصوفية: يرون أنه يمكن النظر إلى الذات الإلهية من وجهين:

"الأول" من حيث هي ذات بسيطة مجردة من النسب والإضافات أو الموجودات الخارجية.

"والثاني" من حيث هي ذات متصفة بصفات.

وهي من الوجه الأول منزهة عن صفات المحدثات، وعن كل ما يحيطها بالوجود الظاهر بل منزهة عن المعرفة، لا يمكن تصورها ولا التعبير عن وصفها ووجود الذات في هذا الوجه وجود مطلق.

وفي الوجه الثاني مقيد أو وجود نسبي فهو لا يعرف من غير النظر

في العالم فوجود الحق متعين في صور إعيان الممكنات أو في النسب والإضافات المعبر عنها بالصفات، ومن هنا كانت الموجودات كلها صفات للحق (فالحق عين الخلق) أو عين الصفات الظاهرة في مجالي الوجود، وهي ليست شيئاً زائداً على الذات بل هي نسب وإضافات.

وهذا قول المعتزلة في أن الصفات عين الذات، وعلم الحق بذاته هو علمه بكل شيء في الوجود سواء ما كان بالقوة، وما كان بالفعل، ولكن الحق يميز الأشياء عن نفسه من حيث هي موضوعات لعلمه، وهذا لا يتعارض مع وحدة "العلم والعالم والمعلوم" وهو تمييز لا بد منه في طبيعة الوجود المعروف[1].

والصوفية يفرقون بين المادة والروح، ويفرقون بين العالم وبين الله، ولكنهم يقولون أن العالم الظاهر لا وجود له حقاً، وأن الوجود "الحق لله، وأن الوجود متصل اتصالاً بالله، اتصالاً يجعل إدراكه بغير الله متعذراً؛ ولا فرق بين الواحد والكثير عند بعضهم إلا باعتبار النظر العقلي، فهو يدرك الكثرة في الوحدة، والوحدة في الكثرة بطريق الكشف والذوق لا بطريق الحس والعقل".

والصوفية يشاركون المعتزلة والأشاعرة في الاختيار عندما يكون للسالك كسب، وهي أول مراحل الطريق، فإذا وصل مرتبة الفناء في الله تخلص العبد من الكسب وصارت أفعاله كلها لله. فالجبر عندهم مسألة

---

[1] الدكتور عبد الوهاب عزام بك (التصوف وفريد الدين العطار).

نظرية لأنهم دائماً يحثون على العمل ويوصون به ولم يترك أحدهم العمل احتقاراً.

والمعتزلة يرون أن عدل الله يوجب عليه أن يثاب العامل على عمله.

والأشاعرة يقولون بعدم إيجاب شيء على الله.

والصوفية يقولون برأي الأشاعرة، ولكنهم لا يألون جهداً عن العمل والحث عليه، ولكن العمل لا يغني فتيلاً فهم يرجعون الأمر كله لله ورحمته وفضله، فرب خطرة أو عمل صغير يكون عند الله كبيراً فينقل العبد به من الشمال إلى اليمين ثم يقيم على الصراط المستقيم.

وختـام المسألة

أن جميع من فكروا في الألوهية والفلاسفة والصوفية؛ قالوا أن الوجود وليد تدبير حكيم واحد متصف بالكمال والتنزيه، وأجمعوا على أن هذا الوجود وليد الحب، وكشفوا أن هناك قوة كامنة في النفس مغايرة للروح تربط العقل بالحقيقة ليست من عندنا بل هي هابطة من فيض الوجود المطلق، فكثيراً ما نشعر ولا نفهم موقفنا من هذا الإحساس، فنفهم أنه دليل الحياة، كما أننا نبصر ولا ندرك الضوء الذي يهدينا ويوصل إلينا العلم فتميز به أفكارنا وأرواحنا الأشياء وأحياناً نتحرك حركة آلية قبل أن نعلم مبعث هذه الحركة، وتستمر غامضة علينا عند تفسيرها،

وأخيراً نجزم أنها فوق الشعور وفوق اللا شعور؛ فالقضية الكبرى هي قضية الإنسانية وهي قضية الوجود والروحية بل هي قضية الحياة الكلية.

وخلاصة الموضوع: أن "وحدة الوجود الصوفية" مذهب روحي مؤمن، بحل الألوهية في الوجود ويجعلها المحل الأول، ويعتبر "الله" الحقيقة الأزلية والوجود المطلق بخلاف ذلك المذهب الفلسفي الذي يجعل الله اسماً على غير مسمى حقيقي، ولا يفرق بين المادة والروح، ولا بين ما هو طبيعي وبين ما هو إلهي، ويجعل الخالق والمخلوق شيئاً واحداً. فكل تشابه بين المذهبين ما هو إلا تشابه ظاهري شكلي وليس حقيقياً، إلا أن الصوفية حين يصورون حالهم وأفكارهم لا يمكنهم أن يصوروها إلا بخيال أقرب إلى المحسوس لأن لغة القلوب بعيدة عن إدراك المحسوس.

هذه المقدمات

وهذه المقدمات تلقي الضوء على كثير مما أشكل في مواضيع التصوف وتنير السبيل إلى موضوع شرح القصيدتين "وحدة الوجود"، و"الإنسان الكامل"، وقد يجد القارئ بعض التكرار في الأفكار، وربما في نفس الجمل، لأني كنت وضعت الشرح قبل المقدمات ثم آثرت إلا أغير منه شيئاً، وجعلته ممزوجاً بالأصل، فلم أشأ أن أتكلم في اللغة أو العروض أو في فنون العربية الأخرى كما جرت عادة الشراح؛ ولكن قصدت الإبانة عن الأهداف التي نشأت عنها الأفكار الدافعة إلى نظم

القصيدتين، ومع كل ذلك فستظل بعض الجوانب غامضة وهذا شأن الصوفية، فعندما لا تساعدهم اللغة أو عندما لا تساعدهم اللغة أو عندما لا تساعدهم ظروفهم بالتصريح؛ يعمدون إلى الرمز والإشارة. ارتكاناً على الذوق في تفهم الحقائق. أما سلامة الذوق فلا تتحقق من غير ممارسة وعمل في طريق القوم بما اشترطوه وحددوه في منهاج السلوك. ولكل هذه الأسباب كان فهم أفكار الصوفية وأحوالهم ومرامي أهدافهم عسيراً وغامضاً على كل من لم يلتمس من التصوف مشرباً.

شرح قصيدة (وحدة الوجود)

(هند) أنت المنى وأنت المنايا؟ نعمة أنت أم جماع البلايا؟

أما (هند) في هذه القصيدة فهي رمز الوحدة، وهي المحبوبة المعنية بها، الوحدة السارية في الموجودات؛ والهوية الفعالة التي قامت بها المحدثات، ولها التحيات المباركات في الصلوات وإليها المناجاة والتوسلات، وهي كعبة الأشواق التي يهوى إليها الفؤاد بالحنين، فإن لم يجدها المحب في قلبه لجأ إلى الأنين فلا يهجع حتى يعمر قلبه بأنوار القرب وتتذوق نفسه لذة الوصل، وليست (هند) هي المشهود من اسمها شخصية ذات عين أو صورة لها ظهور مادي أي محبوبة حسية، إنما هي رموز معنوية يلجأ إليها الشعر للتصوير والخيال.

كل إنسان له فكر، وإن أول ما يفكر الإنسان إذ يفكر، يفكر في نفسه قبل كل شيء، فيفكر في وجوده ويفكر في حياته. ويفكر في

نشأته؛ ويفكر في مصيره وهو في خلال كل هذا التفكير يفكر في صلته بخالقه، ثم يرى أمامه الموجودات المتصلة به فيفكر في مبلغ هذه الصلة أيضاً ثم يفكر في الأمور المقومة لحياته وفي مادته كما يتأمل في نهايته.

فإذا تأمل بعين البصيرة، رأى أنه مقرون بالقطار الخالد الذي يسير به، ولا يعلم متى وأين يقف هذا القطار. وإن سجل سير القطار خط في الأزل الذي لا يعلم ماذا خط فيه. فهو في حيرة بين الرجاء والخوف، يعمر قلبه نور الرجاء والأمل فينشرح صدره، وتظلم في وجهه الدنيا وتضيق؛ فينقبض صدره بعوامل الخوف والملل؛ فهو بين تيارين متضادين وهو عند بسمات المنى عندما يقوى الرجاء يتهلل بشراً بفيض الجمال.

كما أنه مشفق على نفسه خائف يترقب النوازل والمنايا فزعاً جزعاً وجلا من جبروت الجلال. ينادي محبوبه استعطافاً واسترحاماً يقول:

(هند) أنت المنى وأنت المنايا؟ نعمة أنت أم جماع البلايا؟

ثم لا يلبث أن يغلب رحمة محبوبه به، فإن الحب قوامه الرحمة وسعت كل شيء، فلا سبيل إلى الخوف، سيما أنها منبع الفيض ومصدر الحب الذي أخذ عليه المشاعر واستلفت أنظاره وأفكاره للجمال الذي كان من المحبوب أولاً، فأفاض المحبوب على المحب وجوداً من وجوده. تبسم الثغر الوضئ المضيء. وظهر نوره وبدت كلمة من المحبوب أشرق أثرها الوجود وانبثق، وأشرقت الروح من بين لمعة الشفتين المملوءتين بالرحمة النضاختين بالحب المرسومتين بالخير

والجمال والطهر والصفاء، ولا تسل متى وكيف كان هذا الإشراق والانبثاق إذا تحققت أن الفاعلية مستترة عند هذه الكلمة، لأنها مستترة. وهي تعمل عملها خلف أستار الأكوان بعيدة عن الظنون والأوهام خافية عن الكيف والفكر، بالرغم من ظهور فاعليتها كظهور الشمس في رابعة النهار وهي تستوعب الزمان والمكان فلا تقاس بسير الفلك، ولا تدرك بخاطر ملك وهي سر الحياة. لهذا كله يتسع أمام المحب الأمل برحمة المحبوب وحبه له فيرضى عنه، ويأمل أيضاً أن يرضى هو عليه. فيذكره بما كان منه له فيقول (لهند).

تبسمي في الخفى فتشرق روحي　　　من وميض اللما وبرق الثنايا

فإذا كان هذا مبلغ استشعارنا وتصوراتنا لهذا الإشراق البعيد عن الحس المدرك بالذوق، وأن هذه الحقيقة في سموها غيبية غائبة وهو إدراك قلبي، فنحن وميض من منبع الأنوار القدسية الحقية التي هي صفة للذات الصمدانية، وأن هذا النور غير المرئي بالأبصار. كان سر هذه الحقيقة وهو الإشعاع المطلق؛ أو البرزخ بين عالم الوجود وعالم الإمكان. فالفكر في إطلاقه، والمادة في إطلاقها حقيقة متحدة كنشاطين متقابلين لحقيقة واحدة، وهي العلة المحتجبة خلف الأستار، وأن نشاط الصفات هي الخصائص الإلهية الصادرة من الذات؛ لذلك كانت تصوراتنا الدهشة والذهول، وما أن تصورنا هذا المقام إلا

وتذوب القلوب شوقاً ووجداً　　　بحلول الصفا وصقل المرايا

وإذا تأملنا بعين البصيرة ليس في أنفسنا فحسب، بل في جميع الموجودات التي تظهر لنا والتي تغيب عنا ونؤمن بها؛ لوجدنا أن هذا الإشراق هو الانبثاق الذي صارت به جميع العوالم والأكوان في حين الظهور والوجود؛ فالقوة التي تحركنا؛ والقوة الكامنة فينا هي بعينها القوة التي تحرك الموجودات وهي القوة الكامنة فيها وهي القوة التي تعني بالموجودات كما تعنى بنا، ولولا وحدة هذه الذات المهيمنة المعنية بوحدة الموجودات لاستحالت وحدة هذه الموجودات، ولكان لكل موجود قوة خاصة به، وأصبحت هناك المنافسة بين هذه القوى المختلفة؛ ولكن الواقع يؤيد أن العوالم كائنة في وحدة شاملة وأن الموجودات موصولة السرائر بعضها ببعض. وكلها مربوطة بوحدة الذات. فانظروا رحمكم الله إلى أنفسكم وإلى الموجودات فأنتم

مظهـــر لاح فـــي وراء ومجلـــى وغنـــــاء ولـــــذة ومزايـــــا

مشـــهدٌ يجـــذب الخلـــي بهـــاءً وبهـــاءٌ مطلســـم بالخفايـــا

يســـحر اللـــب والفـــؤاد يلهـــو بأسـود الشـرى فتمسـي سـبايا

أما أن الوجود بأسره وحدة شاملة ذات نظام ثابت وترتيب فائق (لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) فأمر واضح الظهور ومشاهد في رق منشور، وكذلك أدركه في نفسي فأنا موصول السرائر بالعالم، أقابل بظاهري الطبيعي الظواهر الطبيعية؛ وأقابل بروحي وبقلبي الباطن الروحاني. فهيكلي صلصال من حمأ مسنون وروحي قبس لدني من شعاع ذلك النور، فأنا ذو صفتين

متضادتين ووجهين متقابلين ولا تتحقق لي صفة الوجود ولا لأي موجود إلا بظهور الوجود الحق فيه. فليس لشيء وجود على الحقيقة والوجود الحق هو للحقيقة المطلقة وليس للمخيلة ولا للفكر ولا لقدرة العقل أن يتصور أو أن يفسر هذه الحقيقة في بيان من العبارة؛ لأنها تدق عن الحواس وتدق عن منطق العقل، إلا أن إدراكه نور يغمر القلب فيملأ جوانبه، وإدراك يغشى الباطن فيفسح مسالكه، ولا يستطاع معرفة أسبابه لأنه فوق الشعور وفوق الإدراك، والعلم مع ما كشف من حقائق والعقل مع ما وصل إلى كثير من المعرفة، لم يستطيعا لمس هذا المنبع في حدود الأسباب والمسببات، ومهما يكن من خفاء السبب والسر عن مدارك العقل وكشف العلم. ومهما يكن في غموضه واستتاره، فإن في القلب قوة بعيدة عن العقل وبعيدة عن العلم تتذوق السبب وتدرك السر ولا تقدر على تبيانه وعرضه على طريقة العقل والعلم.

فالمؤمنون موقنون بأنه سر الحياة، ومصدر القوة والجلال ومنبع النعمة والجمال، ولهم في التماس الدليل والبرهان صور شتى قد لا تكون أمام غيرهم حاسمة، ولكنها لديهم مقبولة معقولة لا يعتريها شك ولا يدخل عليها أي نوع من أنواع التردد، بل هي عندهم حقيقة ثابتة، ذلك السر

فيـــه للعاشـــقين لغـــز خفـــي   ومصون الجناب تحت الحنايا

فالذين صفت نفوسهم من الغشاوات، وزكت جواهرهم فهم من المعدن الغالي الخالي من الآفات والشبهات، سيطر على وجودهم

الحب، فعرفوا أن هذا السر فوق الشعور وفوق الخيال؛ وأن هذا اللغز عزيز المنال، وفوق هذا وذلك فهو ظاهرة عجيبة، وهو أثر بالغ، وهو فوق طور الوجود تتحطم أمامه الحدود ولا تقف في تياره السدود، أليس هذا هو النور الأزلي.

خمـــرة تحتســـى بغيـــر مــــدام   وتمسـي العقـول قبـل الخلايـا

فهـــي كالنــــار والســـعير لهييــا   أكـل الغيـر والسـوى والخطايـا

فإذا أدركنا الحب وعوامله وأسبابه، وإذا أدركنا الجمال وبهجته وجلاله، وإذا أدركنا كيف يغزو الجمال القلوب فيأخذها، وكيف يهجم الجمال على الأفئدة القاسية ليأسرها، وإذا أدركنا كيف يذل الكبرياء للحب والجمال، وإذا أدركنا أن في الناس جبابرة في قوتهم وفروسيتهم؛ وجبابرة في عقولهم ومداركهم غزاهم الحب والجمال فأصبحوا ضعافاً أذلة أمام هذا السلطان ولا حول لهم ولا قوة، بل ولا عقول لهم ولا إدراك. أدركنا حقيقة هذا اللغز، وهيهات:

كـم لهـذا الجمـال الصـرعى وقتلـى   ونشــاوى تهتكـــوا وضـــحايا

ومن أعجب العجب أن المحجوبين عن إدراك حقيقة حب الجمال المطلق، يؤمنون بسلطان الحب الحسي والجمال الحسي، وقد وقفوا أمامهما خاضعين، وتحت سلطانهما مذهولين أليس الأولى لهم حينما آمنوا بالجمال الحسي أن يتدرجوا إلى ذلك الجمال المطلق الذي هو مصدر الحب الأول، ومنبع الحقيقة البدائية التي كانت لها أول علاقة

بين المحب والمحبوب وبين العاشق والمعشوق أيؤمنون بمنطق الحواس ويكفرون بمشاعر القلوب ومعارج الأرواح، أليس هذا عين الحجاب ومدعاة للعجب العجاب؟

لــو أزيــح الســتار عنــا لمحنــا   ذلــك الســر لا عنــاءً ولايــا

وهؤلاء المحجوبون المؤمنون بالجمال الحسي، يلتمسون المعاذير للذين وقعوا تحت سلطانه ويغفرون للمتهتك في محبته. أما من وقع في محبة الله، ومن وقع في محبة الجمال المطلق وتهتك فيه فليس له لديهم عذر مقبول، وهو ملحد كافر مثبور، وكيف ذلك؟

أليس الجمال الجزئي الموجود في الأكوان وفي الإنسان مفاض عليه من الجمال المطلق، وهو مستعار منه، أفلا يتدبرون الأمر؟. أفلا يرجعون الحقيقة إلى منبعها؟. ألا يرون بأعينهم كيف يصبح يوماً ذلك الجمال الجزئي باهتاً؟، وكيف يدركه الفناء والبلى وأن الجمال الكلي المطلق يشع دائماً ولا يبهت ولا يدركه الفناء والبلى؟. بل هو واحد يتكاثر بالنسب والإضافات هو باق يزهو في المكونات.

ظــاهرات تشــع نــوراً جليــا   مـن سـماء العـلا بقصـد هـدايا
باســطات بكــل شــيء دلــيلاً   لخلاصـي مـن القيـود عسـايا

فهم يأخذون الظاهر فيدركونه بدون التماس الباطن منه، والأصل الروحي فيه، ولا يصح هذا أبداً إلا إذا حكمنا أن الظاهر هو الكل. كما لا يصح أن يؤخذ كلام المحبين وأحوالهم على ظاهره بدون التماس

الباطن فيه بالتأويل والعاطفة النبيلة.

وقد يتخذ المحب صورة جزئية للحب، فيتخذ صورة إنسانية مثلاً ويرسم منها صورة جزئية لتكون مرآة يرى فيها معنى من معاني الجمال الكلي، وهو إذ يصور لنفسه هذه الصورة؛ فإن قلبه مشغول ومتعلق بحب صاحب هذه الصورة الذي أفاض عليها من جماله الكلي جمالاً جزئياً. فلا يجب أن يحكم عليه بالحب الحسي. وماذا يضير الصوفي المحب لو انتقل من عالم الأرض إلى عالم السماء، واتخذ من المحسوس سلماً يصعد به إلى المعقول. مثله في ذلك مثل الفنان إذ يقرأ في جمال زهرة من الأزهار سر جمال الوجود وإبداع الألوهية.

إننا لو تفرسنا الباطن بنور البصيرة ونظرنا إلى أنفسنا وإلى الموجودات وارتفعنا قليلاً من عالم الأرض إلى عالم السموات، لرأينا مسقط الشعاع ومهبط النور، ولوجدنا (الوحدة السارية في الموجودات) ذات الرمز المعروف.

هنــد شــمس تبرقعــت بحجــاب	عـن مرائـي العيـان بـين الطوايـا
وهــي روح الوجــود لــب المعــاني	قــد تجلــت تحائفــاً وهــدايا

نعم لو تتبعنا الظواهر وبحثنا التفصيل من الإجمال، فأرجعنا الجمل إلى كلمات، والكلمات إلى أحرف والأحرف إلى خطوط، لوجدنا أن الخطوط كلها تتلاقى في نقطة واحدة هي السر المكنون الذي يتفرغ منه كل الخطوط والأشكال والمسطحات. وإن المرء أول ما يفكر لا يفكر

إلا في نفسه، فإذا بحث في هذه النقطة وجدها قد شقت لها ممراً باطنياً فيها، واستطاعت أن تكشف له الوقائع والبراهين بشعور غيبي داخلي هي التي أحدثته؛ فوجودها أصبح ظاهر الأثر باطن الذات، فلينظر كيف يفكر وكيف يفرح، وكيف يحزن، بل كيف يتحرك أحياناً ولا يفهم مبعث هذه الحركة.

أليس هذا كله مبعثه القوة الكامنة فيه، التي لا يدرك بطونها فيه، ولا يدرك منها إلا ظواهرها التي تبدو عليه، فإذا عرف ذلك عرف كذلك أن الوجود مسوق بيد واحدة، وأن الوجود كذلك مربوط بوحدة شاملة، وإذا كان موصول السرائر بالعالم كله، فهو المقصود من العالم كله بما له من العقل والفكر وبالأمانة التي أودعت فيه.

يا خليلي استفق (فهند) حياتي　　　لا تناغي ولا تحب سوايا
كم لها منة عليَّ وفضلٌ　　　وسخاءٌ ورحمةٌ وعطايا

إن الروح لتعلم ذلك، ولكم تبدي من المحاولات شغوفة إلى عالم الخير والجمال عالم الطهر والصفاء الذي بدأت فيه ثم هبطت منه إلى عالم المادة، وأصبحت حبيسة بين غش الحواس ومكرها وخداعها التي تعوقها وتمنعها دائماً عن ارتباطها بعالمها الأصلي؛ فإن الأرواح كانت في عالمها الأصلي طاهرة صافية خيرية جميلة فطرة الله التي فطر الناس عليها فلما علقت بعالم المادة طغت عليها فجذبتها إليها. فهي لا تزال تحن إلى معينها الأول تطلب الفكاك من أغلالها، فترفع رأسها إلى السماء حيناً، وتجذبها الأرض إليها في أكثر الأحيان، ومن الحق أن

نقول:

لـو صـفا القلـب لارتقـى لمـلاك وسـما فوقـه وفـوق البرايـا

لما سأل الله الأرواح ألست بربكم قالوا بلى، قالوا ذلك لأنهم كانوا طائعين والقلب هو الوعاء الحساس الذي يتأثر بأي حركة طفيفة من تيارات شعاع الحقيقة كما أن النفس هي الشرارة التي تنقدح فتسير مع هذه التيارات، والروح هي الطاقة النفسية، فالجهاز المستعد لتلقي جميع التيارات أي لتلقي جميع الحقائق وإدراكها ووعيها عقلاً أو ذوقاً هو ذلك القلب. ولقد أيقن القلب حين تلقى جميع التيارات والحقائق وأدركها أن الإنسان يشرف جميع المخلوقات وله فضل الرياسة عليها، ولقد أعلن الله شرفه في الملأ الأعلى حين قال للملائكة اسجدوا لآدم وحين علمه ما لم يكن يعلم فكان علمه أعلى من علم الملائكة حين قالت سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا، ولكن الإنسان لا يفكر إلا بمقدار قبوله لما يبدو أمامه من الظواهر ولا يفهم إلا بمقدار نفاذ بصيرته ونواحي تفكيره هي الحاكمة عليه، ودرجة معرفته لا تكون إلا بمقدار استعداده، وقد أحاطت به غرائزه الطبيعية فأصبح ذا غطرسة وذا كبرياء، ولولا ما سبق له من محبة لهلك لذلك هو يقول عن محبوبته هند وهو عليم برحمتها له

أتمـادى علـى البعـاد وتـدنو كـل يـوم شـغوفة برضـايا
أتغاضـى تغـافلاً ودلالاً أو جحـوداً لهـا فتظهـر آيـا

ويقول لم يكن تباعدي عن (هند) وتغافلي عنها باعثاً لها على قطع

صلاتها بي لأنها تحبني وتشفق علي، ولم يكن جحودي لأفضالها وأياديها مانعا لها عن أن تسترضيني بمختلف الوسائل من الهدايا والنعم لتشوقني لها وتنبهني إلى معرفتها ومعرفة نفسي بإزاء هذه الهبات والمكرمات، فلا تزال تستعمل معي نفس الطريقة التي نربي بها أولادنا فنرحمهم ونعاملهم إذا هم ركبوا رؤوسهم فشطوا عن الطريقة المثلى وعن الصراط المستقيم فنعفو عنهم. ولا تزال رغم هذه الفعال نقدم لهم الكساء والغذاء ونتعهد صحتهم ونحدب عليهم راجين لهم عودة إلى حظيرة الصواب، لأنهم قطعة من أنفسنا وجزء من أكبادنا وثمرة فؤادنا ومظهر شخصياتها ودليل وجودنا. فالولد سر أبيه وهو مرآة نفسه ومرآة أخيه. حتى إذا قسونا عليهم أحياناً فإنما نخوفهم والقرآن يقول (وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا) وكل هذه الأمثال دليل الحب ودليل الرحمة.

كل ما في الوجود سر طريف ومزامير كلهن وصايا
رتبتها بحكمة وجمال وافتنان وجلوة وعنايا

فإذا تتبعنا ظواهر الموجودات وتتبعنا حقائقها وتفرسنا صلاتها وارتباطها كلها وجدنا أنها تشهد بدلائل الحب والوحدة الشاملة، ووجدنا أنها وإن كان لها عمر وتقدير من الزمن يطول فسيزول بعد أن ينتهي عمر الإنسان لأنها للإنسان دليل وبرهان، وهي له جمال حين يروح وحين يغدو إلى أن يأتي آخر السلالة. ولكن الإنسان إذ يرى هذا كله ويفكر فيه، لا يقنع بذلك، بل يريد أن يفنده مم بدأ؟ وكيف يزول وماذا وراءه؟ وما الذي بعده؟ وما هي الصلة بينه وبينه وما سر حياته؟ يريد بذلك أن

يلمس الحقائق بيديه. حتى أنه ليبحث ويفكر فيما وراء هذا كله، وفيما وراء الظاهر الطبيعي، لقد آمنت روحه التي خلصت من المادة بالتوحيد وبفيض الوجود الصادر عن الواحد بواسطة الحب قبل سلوك الدليل عليه، فإن الإيمان بالشيء شعور غيبي يدع المؤمن يتخيل الدليل والبرهان إليه. فإذا أعجم الدليل في إيضاح البرهان وتفسيره لجأ إلى ذوق المحبة، وقد يجبره على ذلك لغط الحواس وغشها وخداعها. فإن القلب إذا توجه إلى منبع الحقيقة التمس النهي من سجل الأزل، ومن القوى البدائية الكامنة في الموجودات، وبهذا يهتدي إلى النهاية كما اهتدى إلى البدء والفيض بل والإيمان. فإن هذه النقطة تبعث أمام الأعين تياراً من الشعور فقد المادة بمحاولات من الروح نفسها تميل تارة ذات اليمين وطوراً ذات الشمال، ولا تلبث أن تتجه إلى النور. أليست الروح قبساً نورانياً، وهو إذ يبحث عن الحقيقة بعد أن تأكد من الإيمان بها يقول:

قــل لمــاذا تحجبــت وتســامت عـن عيـاني وأدلجـت بالخبايـا؟

وكذلك يكدح رجال العلم والفلاسفة لفهم قوانين الله، ولا يزالون يجدون في بحثهم عن مبلغ الصلة بين الإنسان وبين هذه القوانين، ولكنهم كلما تقدموا خطوة تحققوا أنهم مازالوا بعيدين عن الوصول إليها، ومع ذلك فقد وجدوا في بحثهم وكشفهم أن خلف أسرار الطبيعة سراً هو الحكمة التي اختص الله بها نفسه وأفاضها على خاصته ومحبوبيه، وأن العقل لبطيء جداً عن الاعتراف بوجود هذه الحقائق، فالروحية هي العامل الوحيد في سلوك سبل الحب، وهي على حق فيما يتعلق بهذه

الواقعيات التي عدها رجال العلم والفلسفة قبل البحث فيها من عمل الوهم والخيال.

قد تعبنا بكشف سر دقيق	دونه دائماً حجاب الخفايا
تعب الكل في تقصي أمور	لا تؤدي جلاء الروايا
فغموض يدق إثر غموض	تنتديه الشكوك رغم النوايا
نكتة يهرع الحكيم إليها	جاهد الفكر خاضعاً لقضايا
والقضايا موصلات لأخرى	مع قياس ومنطق ومهايا
فاسترح أيها الحكيم ورفقاً	من طويل العنا بجهد المطايا
فمتى كان للنهار دليل	والضحى واضح وشمس البرايا
إن فيض الوجود قصة حب	ذات قلب ورحمة وكفايا

يذهب الفلاسفة في ترتيب الموجودات الصادر من المبدع الحكيم جل جلاله إلى تصور دائرة وهمية، يعتبرون أنها تبتدئ من نقطة مرجعها إليها، والباري هو السبب الأول والصلة الأولى وعلة العلل، وهو الذي أفاض الوجود على الموجودات، وأعطى كل موجود قسطه منها على ترتيب من الفاعلية في حلقة السلسلة الدائرية. فكل حلقة تتصل بما قبلها وتأخذ عنها وتعمل في الثانية وهلم جرا. ولم يجز أن تخرج عن كمال حكمته: أن تكون كلها في مرتبة واحدة، فلا يوجد أبعدها إلا بوجود أقربها وتوسطه فصار بعضها أرفع من بعض. وبعضها أحط من بعض، وصار وجود أقربها منه لوجود أبعدها ولما كانت الموجودات الفائضة من السبب الأول شكلها شكل دائرة آخرها الإنسان. احتاج

الإنسان إذا سلك في مرتبة وجوده أن يعكس الدائرة عند الاعتبار فينحط من مرتبته إلى أدنى مرتبة. ثم يبدأ بالصعود منها نحو المبدأ الأعلى حتى إذا وصل إلى أعلى مرتبة وهي مرتبة العقل الفعال كملت الدائرة.[1]

والإنسان بفطرته يتهيأ إذا أفاض عليه نور العقل لأنه يتصور جميع الموجودات ويتحصل من عقله الجزئي الصور التي في العقل الكلي، لأن الباري أفاض على العقل صور الأشياء دفعة واحدة بلا زمان ولا حركة، والإنسان يقبلها بواسطة حركة الفلك في الزمان والمكان على المعاقبة.

ولما كان الإنسان آخر المخلوقات صار يتقبل ويعقل ما قبله مما في العالم؛ فصار بذلك مختصرا للعالم جميعه وسمي بذلك مختصر اللوح المحفوظ وسمي العالم الصغير حتى لقد قيل فيه:

وتـــزعم أنـــك جـــرم صـــغير وفيـك انطـوى العـالم الأكبـر

والإنسان هو الحد الفاصل بين عالم الحس وعالم العقل لأنه آخر الموجودات الطبيعية وأول الموجودات العقلية، فروحه قبس لدني، فهو إذ يعلو وإذ يسفل يصير كالدائرة التي تبدأ في نقطة ثم تعود إليها، وصار موضوعاً بصورة العالم يحمل صورته في ذاته، فهو أغرب المخلوقات وأعجبها. وأقصى كماله أن يلحق بالعقل الفعال، والغرض من وجوده كمال الحكمة. ويذهب الصوفية في فهم الوجود وترتيب الموجودات إلى ما يماثل هذا الترتيب ولكن بحالة روحية بحتة، قد يسوقونها بلغتهم

---

[1] الحدائق للبطليوسي.

الصوفية فلا تخلو من الصبغة الكلامية الفلسفية، فيقولون أنه ليس هناك إلا وجوداً واحداً كل العالم مظهر له، الوجود واحد ولكنه متعدد الصور والأشكال، والذين أرخوا فهمهم للوجود وترتيب الموجودات قالوا في ذلك:

(١) هذا الوجود إذا اعتبرناه مجرداً من النسب والإضافات كان (الله تعالى).

(٢) وإذا اعتبرناه من حيث احتوائه جميع صور الموجودات ومصدر القوة الناطقة المنبتة في العالم كله (كان العقل الكلي والحقيقة المحمدية).

(٣) وإذا رأيناه ظاهراً بالفعل في صور الكائنات متجلياً في أعيان المحكمات (كان الجسم الكلي).

(٤) وإذا اعتبرناه مصدر الحياة في الكون (كان النفس الكلية التي تدبر العالم).

وأخيراً إذا اعتبرناه من حيث كونه جوهراً يتقبل جميع صور الكون فقد تجلى في صورة الهباء والهيولي، وكذلك يعتبرون الوجود شكل دائرة تبتدئ من نقطة مرجعها إليها ويتلون في ذلك قوله تعالى (كما بدأكم تعودون). فلقد أوجد الله العالم شبحاً بلا روح وكان كمرآة غير مجلوة، فلما اقتضى الأمر جلاء مرآة العالم كان (آدم) (أي الإنسان

الأول) عين جلاء المرآة وروح تلك الصورة لأنه وحده الذي تظهر فيه الذات الإلهية متعينة بجميع صفاتها، والمهم في أقوال هؤلاء وهؤلاء أن الحب هو علة العلل وهو السبب الأول والعالم بين محب ومحبوب.

قصـــة الحـــب بهجـــة وانشـــراح	فـــي قلـــوب مطهـــرات الطوايـــا
نحـــن لحـــن الخلـــود فينـــا ومنـــا	آلـــة العـــزف مزهـــرا أو نايـــا

ومهما يكن من ترتيب الموجودات، ومهما يكن من أمره على وجهه الفلسفي أو على نسقه الصوفي وبغض النظر عن التشابه الملحوظ بينهما شكلياً كان أو حقيقياً، فإن الحب على صورته المتفق عليها بينهما هو العلة وهو الحقيقة الثابتة، وعالم الإمكان أصبح مجرد رمز مجسم يعبر عن حقيقة مجردة تبعث المتأمل فيها إلى التفكير فيما وراء هذه الحقيقة الخالدة التي لا تتطور ولا تتحول.

وإذا كان الإنسان في عرف هؤلاء وهؤلاء هو حلقة الاتصال بين الوجود والعدم وبين الحدوث والقدم، وهو الحد الفاصل بين العقل والمادة، وهو الذي يتقبل جميع صور العالم العلوي والسفلي وتظهر على صفحة وجوده صور الموجودات على تكثرها وعلى اختلافها وتباينها فيعقلها بعلمه وإدراكه، وإذا كانت الحقيقة الخالدة الثابتة تجمع في شمولها سائر الحقائق الغيبية الكامنة وراء كل حادث مما يتمثل فيه النشاط الباذخ من الصفات، وكان هذا مبلغ كل تجربة حسية أو عقلية أو ذوقية. وكان هذا منتهى ما تشرئب إليه سائر العلوم من فروع الرياضات والروحانيات كانت جميع أذواق الصوفية تنتهي إلى التوحيد. وكانوا على

حق حين يسمون هذا المقام مقام الفناء في التوحيد

نحــن لحــن الخلــود فينــا ومنــا   آلــة العــزف مزهــرا أو نايــا

ولنــا الحــق قــد تجلــى وأجلــى   وبنــا صــفحة الوجــود مرايــا

رب أنغــــام ذات نـــــوع وروع   كلهــا مبعــث لوحــدة غايــا

هذه هي (هند) المحبوبة التي شغلت الأفكار بحبها، وأذهلت العقول بالبحث عن معرفة جمالها وجلالها وتبيان أوصافها ومظاهرها، فإذا خفيت عن العيان فهي ظاهرة بآثارها في كل مكان تنادي من فوق عرشها بأعذب الألحان عشاقها أن يقبلوا عليها وأن يعتزوا بقربها فليس بينهم وبينها حجاب ولا ستار فإن لها في كل قلب رشا ولها على كل القلوب سلطاناً.

(هند) أضحت على الأريكة تشدو   وتنـادى الخلـود والوصـل نايـا

حســنها يرتــدي الخمائــل والخــز   لهــا المجــد والعــلا والتحايــا

ولكنها اشترطت ألا تقبل إلا من تخلى عن نفسه؛ وتنازل عن كبريائه؛ وأحبها لذاتها فأحبها لذات الحب ورضي عنها وعن قضائها، فأصبح جمالها يملأ قلبه ونورها يسري في كل جارحة من جوارحه يستشعرها في كل شيء ويراها في كل شيء، وإنها تملأ عليه كل شيء حتى لقد فني عن وجوده فنفى نفسه وأثبتها، وترك نفسه وذهب إليها فأصبحت هي حياته وكيانه ووجوده فهي الوجود الحق وما سواها باطل.

أقســـمت أنهـــا بعيـــدة عنـــا	مـا تبقـى مـن النفـوس بقايـا
وهــي معنـا طـوى حقيقـة كـون	وإليهـا المعـاد مثـل النهايـا

الإنسان الكامل

قررت جميع الأديان السماوية قراراً نهائياً بأن الجنس البشري أشرف أنواع المخلوقات؛ كما قررت الإيمان بالإنسان وبسمو غاياته التي خلق من أجلها وأعظمها الإيمان بالله. فالإيمان بالإنسان سابق على غيره في قضايا الدين والفكر، فإن لم يؤمن الإنسان بنوعه لن يؤمن بالكون ورب الكون، وعقل النوع الإنساني هو الذي يدرك الكون ورب الكون، ولهذا لا يمكن لأي فيلسوف أو مفكر أن يهدر قيمة الإنسان لأنه إن أهدرها أهدر عقله، ولولا عقل الإنسان ما عرف جلال الله ولا تبينت صفاته، فالإنسان هو الحياة الأرضية بالمعنى المركب غير المتناهي.

والإنسان وتر مشدود على الهاوية الفاصلة بين لا نهايتين، الوجود المطلق والعدم المطلق؛ فهو نسيج من كلا النقيضين على تفاوت من نصيب كليهما وفقاً للحظات الزمانية بكل ما تنطوي عليه إمكانيات تتأرجح بين المد والجزر في تيار المصير المتوثب للروح، وهو على كلا الحالتين الينبوع الثر للوجود الحق.

والإنسان هو المجلى الذي يبصر به الحق نفسه فهو مرآته، وهو العقل الذي يدرك به كمال صفاته، وهو الوجود الذي ينكشف به سر الحق إليه. وهو علة الخلق والغاية القصوى من الوجود، وبوجوده تحققت

الإرادة الإلهية بإيجاد مخلوق يعرف الحق حق المعرفة، ويظهر كمالاته، ولولا الإنسان لما تحققت هذه الإرادة ولما عرف الحق.

والإنسان الكامل

والإنسان الكامل اسم شاع منذ وقت مبكر في الشرق والغرب، جعله أهل الديانات روحانياً تتمثل فيه أكمل صور العلم والمعرفة والرحمة والمحبة والخير والطهر والصفاء، وجعله الذين يدينون بالفلسفة المادية ذلك الإنسان الذي اكتملت فيه صفات القوة والجبروت فهو ذلك الملحد الجبار الطاغية الذي لم يدخل قلبه أي نوع من أنواع العاطفة والرحمة، وهو الذي يستهين بالدماء والأشلاء، ويستهين بالدمار والخراب في سبيل تدعيم سيادته وسلطانه على الناس، ويكاد في نظر أتباعه أن يكون شبه إله فهو عندهم في مقام التقديس وأولئك هم النازية والفاشية ومن يسير على أمثال هذه المذاهب ممن يعبدون القوة ويجعلونها هي كل شيء في الإنسان الكامل.

(والإنسان الكامل) عند الصوفية: اسم عام يطلق على كل الأناسي الكاملين الذي تحققت بوجودهم كل معاني الوجود، وأخصهم الأنبياء والأولياء، اختارهم الله من خلقه ليكونوا صلة بينه وبينهم يبلغونهم أوامره ونواهيه، وهو في غمرة من صفات الله؛ أصبح غير واعٍ لها فدخل في حالة الفناء فأيقن اتحاده بالله الذي خلقه على شاكلته فهو مظهر الأسماء الذاتية. وقلبه يقابل عرش الرحمن وعقله يقابل العلم. ونفسه تقابل اللوح

المحفوظ. وطبيعته نسخة العناصر وهو على صورة إنسان.

والاتحاد الصوفي عند الصوفية: هو تلك الحالة النفسية التي تعرض للسالك في سلوكه وينكشف فيها الحجاب عن نفسه فيشهد أن المحب عين المحبوب والرائي عين المرئي والشاهد عين المشهود

فالإنسان الكامل، هو ذلك الإنسان الذي عرف الحق وتحققه، وبلغ في هذا المقام أعلى درجات الإنسانية. يتمثل فيه أعلى ما يمكن لإنسان في مقامات العلم والمعرفة بالله، ويمتاز بأخص خصائص المحبة والفضيلة. فهو المثل الأعلى للإنسانية. بل النموذج الذي يستحق أن يسمى بالعالم الصغير، الذي هو نسخة من العالم الأكبر أو هو الوجود الثاني الذي هو نسخة الأول.

والإنسان الكامل، هو أكمل مجالي الحق؛ لم يجتمع كمال الوجود العقلي والروحي والمادي إلا فيه.

ولقد زعمت بعض الديانات القديمة أن الإنسان الأول خلق نورانيا ولما نزل إلى الأرض ثوى بها وهو على صورة الرحمن وسموه الطباع التام (ويشبهه الإنسان الكامل فيما بعد) وقالت فمن أراد أن يراه فعليه أن يكون خيراً فاضلاً طاهراً، ويقول بعض الفلاسفة في ترتيبهم للوجود بالعقل الأول، والعقل الثاني إلى آخر العقول السبعة وأن العقل يمكن أن يتجوهر العقل فيصل إلى المرتبة التي فوقه، وأن العقل الثالث قد يلحق العقل الثاني مثلاً إذا تجوهر وهكذا كمنزلة الثاني للأول.

ويقول المتكلمون أنه مهما يكن من ترقي العقول المفارقة للمادة بعضها إلى مرتبة بعض كما يقول الفلاسفة فمن المستحيل أن تترقى حتى تصير في مرتبة الباري جل وعلا.

بل أن تبلغ نفس ما مرتبة النفس النبوية مهما بلغت من التجوهر، فإن بلوغها فقط إلى مرتبة النفس الحكيمة المحبة للوقوف على الحقائق، فهي دون النفس النبوية، إذ أن النفس النبوية هي النفس السائسة المدبرة لسياسة النفوس بأمر الباري الحكيم المدبر، ومهمتها تقويم النفوس المنحرفة عن الحق وتسديد الإنسان حتى يعقل ما ينبغي على الوجه الأكمل الذي ينبغي. ثم إكمال الفطر الناقصة بوضع السنن وكذلك للأخبار بالأشياء التي ليست في قوة النفس الحكيمة، لأن النفس الحكيمة تتغاضى النظر في الكليات خاصة.

أما النفس النبوية فلا تحتاج من اكتساب المعارف والعلوم إلى المقاييس والمقدمات كالنفس الحكيمة؛ فالنفس النبوية أكمل الله خلقها في أصل فطرتها وأبقاها تحت عنايته محوطة بحمايته مشمولة بعينه التي لا تنام. مجملة بالمعرفة الحقة ليسوس العالم بواسطتها.

لذلك لن تكون نفس نبوية بكسب فحسب بل بالوحي، والنبوة ضرورية للتوسط بين الله وبين الناس حتى تنتقل بها أوامر الله إليهم، فالله هو المهيمن على الكون والمعني به والنبي هو الوسيط. ولا يتصل النبي بالله مباشرة إلا في حالات قليلة خاصة نادرة كما يروى عن النبي "صلى

الله عليه وسلم" في الحديث الشريف (لي وقت لا يسعني فيه إلا ربي) وكذلك لا يتصل النبي بالله وبالبشر معاً. بل يقوم بين النبي وبين الله وسيط آخر هو الملك أي الوحي. يقوم بتفويض كامل من الله. كما أن الرسول لا يمكنه مطلقاً أن يفعل شيئاً قبل استئذان من أرسله بحيث يستطيع أن يقترب شيئاً من الكلمة الإلهية وبهذا يكون الرسول على شعور بنوع من سريان سر الألوهية إليه، بوجه بعيد عن الحلول والاتحاد. وذلك السر هو التأييد والنصر. ومثل هذا الشعور الواعي يحصل للمؤمنين الذين هم الصديقون والأولياء، وهو العامل الفعال في نفوسهم؛ فهو يتطور بالروحية إليهم.

ولا شك أن كل نبي في أمته في المرتبة الأولى من الإنسانية وهو أعلى صورة من صور المثل العليا عندها، ولقد كانت حياة نبينا محمد "صلى الله عليه وسلم" في الدنيا في ضمير أمته كذلك. ولا تزال الأمة تتمثل في هذه الصورة، فهو في ضميرها في أعلى الصور وأكملها من المثل العليا. والإسلام هو آخر وأكمل صورة انتهجتها روح الرسالة العامة وهو الختام. ومحمد "صلى الله عليه وسلم" خاتم الأنبياء فهو أكمل صورة من الصور التي انتهجتها روح الرسالة العامة كذلك ولقد قرأ المسلمون الحديث الشريف الصحيح. أنا سيد ولد آدم ولا فخر. وقرءوا الحديث المروي عن جابر بن عبد الله الأنصاري. أن أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر فإذا قال المسلمون أن محمداً "صلى الله عليه وسلم" هو أصل كل كمال إنساني فقد صدقوا دينهم الحق.

فلهذا، ولذلك قال الصوفية أن محمداً "صلى الله عليه وسلم" هو (الإنسان الكامل) قالوا ذلك طبقاً لتقرير أهل السنة، ولكنهم أخذوا حديث جابر بن عبد الله الذي لم يرد في الصحيح فاعتقدوه يقيناً فأحدثوا شبهاً بين عقيدتهم في الإنسان الكامل وبين ما ورد في زعم الديانات القديمة في الإنسان الأول ثم بين ما ذهب إليه بعض الفلاسفة في مسألة تجوهر العقول المفارقة للمادة عند ترتيبهم لدائرة الوجود: فقالوا (بالحقيقة المحمدية) في شكل يتفق ومشاربهم وأذواقهم.

والذي أعتقده فيهم وإن كان كثير من العلماء تحداهم وطعنهم لوجود هذه الشبهة أن هذه المقررات ليس لها قيمة كلية في تقرير الإيمان التي تمس عقيدة التوحيد عندهم بل هي كما يقول الأباصيري من نوع

وغاية القـــــول فيه أنه بشر   لكنه خـــير خلـق الله كلهم

فعقيدة التوحيد عندهم أسمى وأعلى مراتب الإيمان، ودرجة النبي محمد "صلى الله عليه وسلم" أسمى وأعلى مراتب النبوة عامة، وثمة بعد ذلك اعتبارات ومجاراة للأفكار التي ترسم خطوطاً من التصوير الشعري والخيال عند جدلهم لأهل الديانات والفلاسفة.

أنا ذلك الإنسان المهيأ بالفكر والعقل، خلاصته السلسلة على وجه البسيطة لكل الخليقة. أنا ثمرة الوجود التي خلقت السموات والأرض من أجلي. كل شيء رمز لمعنى بسيط في الوجود، وأنا رمز جميع المكونات والمظاهر فأنا ذلك العالم الصغير الذي انطوى فيه العالم الأكبر.

وإذا كان هذا الوجود المائل للعيان في الأرض، وما فيها من بحار وأنهار، ومن خصب وزرع وأشجار وثمار، ومن جبال وقفار مليئة بالمعادن والجواهر التي تشتاقها الأنظار، ومن سماء وما فيها من كواكب شموس وأقمار، ومن بين هذه وتلك في أنوار وأضواء وكهارب وأسرار، ومما في كل ذلك من عناصر وطبائع وآفاق وأغوار.

وإذا كان هذا الوجود الماثل محل الدهشة، ولا يزال مصدر الحيرة لما فيه من المعاني المسجونة التي لم ينكشف عنها جميعها بعد الستارة، وإذا كنت أنا الإنسان نقطة دائرة الوجود تمثلت فيَّ جميع علومه وفنونه ومعانيه التي يشار إليها بالبنان؛ وهو حق لا يعتريه بطلان.

أنـا حـق، وصـفحة الخلـق حـق　　　بـرزت فـي، فـي بـدائع فـن

وإذا نظرت إلى نفسي أنا الإنسان الموجود الحق، وإلى صفحة الوجود الموجودة الحقة، وتأملت كيف قام الوجود. هل جاء بطريق المصادفة فاندفع بنفسه أم أن هناك إرادة عليا وقوة خفية وتدبير حكيم فوق طاقة ذلك الوجود وفوق مستوى عقل الإنسان المفكر. هي التي

أفاضت على الوجود وجوده عندما أرادت الظهور فصار الكون.

إنما الحق هو الأول والآخر.

أنـا فعـل؛ وفعـل ربـي عـدل ثـم فضـل، لـه الرجـاء والتمنـي

الفعل نتيجة إرادة، والإرادة نشأت عن علم؛ فقبل وقوع الفعل لم أكن شيئاً مذكوراً وكنت في عالم المجهول. ولكن المخرج لرواية هذه الحياة فرغ من وضع فصولها، وأتقن تصويرها ونظامها وتأليفها في عموم نواحيها العلمية والفنية فهي في غاية الأحكام والانسجام ولما يتم العرض إلى النهاية. ثم بدأ يسلط على الشريط شعاعاً من نوره. فيظهر للعيان ما يظهر ثم يختفي ما يتم عرضه ليظهر غيره ثم تكون النهاية إلى آخر (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا. فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا.إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا). كانت الأفلام مسجونة في مستودعها محجوبة عن شعاع النور. الذي هو روح الوجود وحياته. ثم سلط الله ذلك الشعاع الرباني على ما لديه في خزائنه. فلما أذن بإزاحة الستار كنت

أنـا فـي الوضـع كالخيـال ولكـن قـدير أنـي العيـان جرمـاً بـأين

وبتحقيق الأين في الحساب الهندسي للخطوط والأطوال والأشكال في الدوائر والمسطحات التي ظهرت بعد البطون، وصارت إمكانيات في حدود ورسوم، فارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير، ثم ارجع بهذه الخطوط والأشكال وغيرها من الرسوم إلى أصلها ومنشئها. فلن تجد غير نقطة البدء التي سار منها القلم يرسم

على صحائف الوجود هذا التصوير من تلكم الأفلام، فما هي هذه النقطة إنما الوضع الحقيقي لها نقطة الوهم، نكتة الفصل خط، فخطوط تلوح من وجهتين

أما وضعها الأول، فالحجاب في الأفلام. أما وضعها الثاني فمقابلتها للشعاع، ومن هنا يكون الخيال على الشاشة. فكلا الحالتين عدم إذا لم يسلط شعاع النور. فإذا ظهر ذلك الشعاع ظهرت براعة التصوير وحسن الإتقان ودقة الفن وما صنعته الأفكار (أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا. ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا)

هذه الشمس تجعل الظل رمحا	ثم من بعد ميلها رمحين
ذلك الظل في الصباح ظلال	تتلاشى والشمس فوق الحزين

وكل هذه أمثلة فالشمس تمثل الذات، وشعاعها يمثل الصفات، والوجود كالظلال أو كالخيال ولله المثل الأعلى. ومثال آخر فالله المحيط الواسع ومثالنا أي الموجودات في قلب المحيط كالزبد والأمواج وذلك نشاط الصفات وصفة المحيط الماء، وقد تتجمد الأمواج فتصير كالثلج على سطح الماء، قد يذوب الثلج فيعود إلى حالته الأولى تبعاً للنشاط البادئ في المحيط وما ثم إلا المحيط؛ الماء وموجه وزبده، فالموجودات تشبه الثلج إذ يذوب ويفنى، فهباء لدى الألوهة كوني فإذا كان هذا عند التحقيق مبلغ وجودي ووجود الأكوان. وإذا كنت أنا ممكن الوجود لست قائماً بنفسي، وكل ممكن ليس له وجود حقيقي بل

يعتريه التغير والزوال.

كما يظهره الإمكان وتدفعه القوة التي تعمل في الخفاء خلف الأستار

فوجــودي نشــا نشــوءاً معــاراً	لست في الأصل مستقلاً بشأني
وحيــاتي مفاضــة مــن حيــاة	ذات فـيض وذات علـم لــدني
إنمـا الحسـن والجمـال المفـدى	أبدعتــه يــد لهــا كــل حســن
قــوة فــي الخفــاء ذات اقتــدار	ومليـــك منـــزه عـــن شـــين

نعم.. ورد في الحديث القدسي (كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف، فخلقت الخلق فعرفوني) كان الله ولا شيء معه غير أسمائه الذاتية. كان الفرد الصمد الواحد الأحد. يحمد نفسه بنفسه ويعظم نفسه بنفسه، ولما أراد أن يتجلى من علياء خفائه المكنون من البطون إلى الظهور. جاوبت الصفات هذه الإرادة فانبلجت في تيار المحبة هذه المظاهر، ولم يكن ثمة دوافع غير المحبة لأن الله هو الغني والكل مفتقر إليه

عنـدما اشـتاق وهـو فـرد غنـي	لمعـة للصـفات فـي ذات عـين
أخرج العين فاستجابت وأضحت	مطلــع النــور صــنعة الكفــين

ولما كان الإنسان هو المقصود من الوجود، وهو النموذج الفريد الذي يمثله في عناصره وطبائعه وكل ما فيه من الخصائص المادية؛ وهو

العين التي تتجلى فيها الشمائل الروحية وتعقل صفة الربوبية. كان هو الجامع الصغير الذي تحقق به كمال الوجود المادي والروحي، وهو العين المستعدة لقبول مميزات النقيضين.

وهي إن شئت قلت روحاً ولطفاً   وإذا شئت قلت جسماً بغين
تتهادى تأرجحاً بين نور   وظلام لجمعها الصفتين

ومن المحقق أن الروح التي هي حياة البدن خلقت قبساً لدنياً في حظيرة الملأ الأعلى وكانت من قبل طيعة طاهرة صافية، فلما هبطت من ملئها وتلبست بالبدن علقت بأقذار المادة وعالمها الملوث. ولكنها لا تنفك تتلمس الخلاص لتتخذ مكانها بين إلفها ونظائرها في عالم الخير والجمال حتى لكأنها توشك أن تنخلع من مادتها وتخلع أردية البدن طلباً للصفاء والطهر التي اعتادتها قبل هبوطها

فهي بالروح قد تعاني المعاني   جذبة الحب قبلة الخلين

ومع أن هذه الحالات تعاودني بين حين وحين فترتفع بي إلى عالم الملكوت حيث الملأ الأعلى بل قد تعلو بي إلى الحضرات القدسية فأحظى بتذوق لذة القرب والوصال حيث ينحسر الزمان والمكان، فأنا بين حالتين من الشد والجذب، غير مستقر إلى قرار. هذه مادتي الكثيفة ومعها نفسي وغرائزي الطبيعية. وهذا قلبي ومعه روحي واتجاهاتي الروحانية، أمانة حملتها فجهلت قدرها وظلمت نفسي إذ لم أقم بالأداء كما يجب أن يكون الأداء. وخصائص ومميزات أودعت فلم أستعملها

حق الاستعمال فأنا ذلك اللغز الغريب.

لــم أزل جــامع العناصــر فــرد جـوهر فـي كثيـف أو بـين بـين
لست في شك أنني بعد مشدود إليهـــا وموثـــق فـــي تجنـــي
فاشـتمالي علـى العناصـر أدنـى فهمهـا لـي بجـذوة العلـم منـي
واشـتياقي إلـى معينـي عـلا بـي بشــعاع مــن الضــياء اللــدني
وارتبـاطي مـع المـلا هـز روحـي للتعـــالي وللحظيـــر الأغـــن
أنـــا حـــق، لأننـــي ذو حيـــاة ووجـــــود وذو مقـــــابلتين

أنا الفاتح لما أغلق من خزائن الوجود، أنا الذي سخرت لي الأكوان ومفاتيحها في يدي، مرآة قلبي الصافي منطبعة فيها صور الموجودات أحولها وأنقلها من عالم الغيب إلى عالم الشهادة. علمني الله جميع أسمائها. أنا نفحة الله وكلمته أقابل العلم الأعلى بعقلي، وأقابل اللوح المحفوظ بنفسي، وأقابل العناصر بطبعي. وأقابل الهيولي بقابليتي. أنا الصلة بين الله وبين الأكوان. أول ما خلق الله العقل، وجعلني مجلى له وبه عرفته وعرفت منه الموجودات.

أنـــا لـــوح، وفـــي خـــط هجـــاء ألف الحرف همزة الوصل مني
قلـــم النـــور خـــط قبـــل كتـــابي وهـو يبـدي مـع المشـيئة شـأني
صـورتي للوجـود مجلـي ومقلـي مجمـع الضـد مبعـث للتغنـي

أنا ألف أبجدية العالم، وأنا همزة الوصل بين الكلمات والحروف أربطها بعضها ببعض، ونفسي هي اللوح الذي خط فيه بالقلم. كل شيء

في الطبيعة جامد صامت لا يعطي جواباً عن غاية الحياة، ولكني بعقلي وبقلبي تنبثق لي المعاني المسجونة، من أضواء المواد والقوى فأبرزها وهبني الله صفات ربانية، ومواهب اصطفائية وشمائل روحية ربطت بها الكون كله. وأن في الكون ولاء متباين بين نسبه المختلفة وكل له معنى من المعاني وسط أمواج محيط الوجود. لخصتها واختزلتها ووضعتها أمام الفكر ملموسة

صـفحتي تطبـع الحقـائق فيهـا وأمــامي أنــا، كمــالي وأينــي

بانطبــاعي علــى المرايــا أرانــي أنـا نفسـي ولـيس غيـري لعينـي

حكمـة للحكـيم جـاءت وفاقـا فـــي وضـــوح ودقـــة وتـــأني

غمرني الحق بنوره؛ وكساني جلابيب عزة. وخلع علي خلع التشريف والرضوان، وجعلني خليفة في الأرض؛ وجعلني للناس إماماً، واصطفاني له خليلاً وكليماً وحبيباً؛ وعلمني الأسماء كلها؛ ووهبني أسماءه الحسنى وصفاته العليا، وميزني بالعقل ومعرفة توحيده، وحملني في الفلك، وأبدل النار بجنة الرضوان والقرب منه، وعلمني منطق الطير وسخر لي بساط الريح أتنقل عليه وملكني أزمة الجن، وعلمني كيف أحيي الموتى بإذنه. وصرت أجعل من الطين كهيئة الطير بإذنه وأبرئ الأكمه والأبرص بإذنه.

وليس في ذلك من إرادة لي غير إرادته، وليس لي من فعل أو قدرة على فعل بغير تلقي إذنه ووحيه. فأنا نفسي نتيجة وأثر لفعله. وكل ما بدا

للخلق على يدي كنت فيه وكيلاً لا أصيلاً. فإذا أراد الله أن يتصل بالناس ليشهدهم جلاله وعظمته، وليعلمهم توحيده، أجرى المعجزات أي الأمور الخارقة للعادة والعالية على مستوى طاقتهم ليلفت عقولهم وأذهانهم وأفكارهم إليه. وإذا أراد الله أن يرقي الناس في نظمهم الدينية والاجتماعية أو أن ينقلهم من أوضاع إلى أخرى؛ وضع يده في قلبي وسلط من لدنه تياراً خفياً يحركني به فتجري بذلك أحكامه وقضاؤه وبيناته. وأكون أنا في كل هذه الحالات نائباً عنه. ولكن كثيراً من الناس لنقص فطرتهم وبعدهم عن إدراك المحرك الحقيقي يوهمون فيظنون أن الفاعل هو من جرى على يديه الفعل وينسبون له الألوهية تارة أو حلول الإله فيه تارة أخرى، بل العجب أن يجعلوه في مصافهم فيجعلونه أباً وأنا ابنه، وحاشا الله كل ذلك أو أشباه هذه الأوصاف والشبه وتعالى علواً كبيراً.

وشتان بين مقام الربوبية وبين مرتبة العبودية وشتان بين القديم والحادث. وحاشا للرب أن يتخذ ولداً أو أن يكون له شريك في الملك أو أن يحل في صورة من الصور الزمانية والمكانية فإنه تعالى يتعالى عن الزمان والمكان لأنه البارئ المصور.

غمرتني جلائل العز والنور فأضحى يظن في التبني
ظلموني إذ ألهوني ومالي غير ظل كذا العبودة قرني
شرَّف الله بالمحبة قدري وحباني صفاته فهو حصني
صرت موهوبا بالأصالة مرهوبا مطاعاً وصار نوري وعوني

وكفتنـــي لبـــابتي كـــل شـــيء فقضـى لـي بحبـه كـل ديـن

كذلك خطوت بإدراكي الذي ركزه في لحل عقدة التوحيد. وخطوت خطوة عظمى إلى الكمال العقلي والشعور القلبي والغيبي. ورأيت أن العوالم كلها مسوقة بيد واحدة وفي اتجاه واحد نحو الواحد الأحد، وذلك شأن النبوة حيث أن مهمتها الأولى هو توجيه الناس إلى كمال التوحيد أولاً ثم توجيههم إلى الكمال الخلقي في المعاملات والاجتماعيات وبناء الأسرة وبناء الدولة. حتى يصير الجميع إلى حسن المآل. ولما كان لا بد من عوامل تيسير الخير والرفاهية للناس ولا بد من توفير أسباب الدفاع عن الأمة؛ أن يستخدم الإنسان جميع القوى الطبيعية والعناصر المختلفة فيها من أجل ذلك.

وهذا هو سر سبب وجود الصلة الوثيقة بينه وبين جميع العوالم، لشهود حقائق الربوبية في القوائم الطبيعية ودلائل التوحيد فيها.

خضـعت لـي عـوالم الكـون لمـا أنســت بــي بنســبتي وبــأيني
في يدي الملك من جبال وسهل ثــم مفتــاح كــل كنــز وكــن
قـد تحكمـت فـي الخلائـق طـراً كـل طيـر وكـل وحـش وجـن

نعم لما كانت جميع صور الأشياء ومقدراتها وأشكالها وألوانها وأحداثها وأفعالها معلومة لله مفعولة تأمره، وكنت أنا الفاتح للنشأة الأولى وأنا الواسطة بين البطون والظهور وبين إبراز ما في خزائن الله من العلم المكنون. فأنا أول من انقدحت له شرارة الفكر من حياة المعقولات،

وكان الفكر مجهولاً للحواس. فاستجمعته وفصلته صوراً ذهنية ثم وزعته عليها، فإن ظل يد الله تقع على كل شيء وتضعه في موضعه في دقة وكمال، وكنت أنا ذلك الظل.

فانطوى لي الحديد كالطين حتى	صار أهدى ولان سنا بسن
واهتبلت الدفين من معدن الأرض	فأنبأ يقول أني وأني
واكتشفت القوى وجمعت منها	كهرباء ومغنطيساً بفني
ثم جُبت البحار ظهراً وبطناً	واختزنت العجيب في طي دني
وامتطيت الهواء مرقى ومسرى	مركباً كالبراق للفوق يدني
واتخذت الأثير بعد رسولاً	صادقاً كالأمين ينقل عني
واعتزمت المسير للنجم لما	قست ما بينه اقتراباً وبيني
ثم لازلت أهتدي في نجاح	لارتياد السها بوقدة ذهني

ومع أن هناك اختلاف بين وحدات العالم بعضها عن بعض في النشأة، وفي التكوين وفي القوى وفي الطبائع، ولكنها بالنسبة لي متقاربة لأني موصول السرائر بها؛ فأصبحت بذلك معلومة لدي وأصبحت أنا كالمجهر تمر من خلاله هاتيك الطبائع بخصائصها بعد أن كان غيباً مستوراً. لذلك لا ترى شيئاً قد استعصى على فهمه. ولا ترى شيئاً لم أصل إلى أعراضه وأحواله. ولا ترى شيئاً لم أستخدمه عند توجهي إليه بما وهبني الله القدرة على حل ألغازه وفتح أغلاقه، وذلك تقدير العزيز العليم.

كلمـــا خـــاطري يواجـــه أمـــراً   يتـــدلى كمـــا أشـــاء وأعنـــي

وليس هذا بعجيب ولا مستغرب فإنه أنزل أصولها من سماء علاه فهي هابطة علي فالمعجزات أيقظت ذهني ونبهت فكري لأن أسعى في ارتياد السبيل لأشباهها. وكل خطوة أخطوها في هذا السبيل تستهويني إلى خطوات أخرى حتى أضع يدي على مفتاح بعض أسرارها، وما ثم فاعل في الحقيقة إلا هو. فمعجزة نوح عليه السلام جعلتني أسير إلى صناعة الفلك، وقصة يونس والحوت نبهتني إلى صناعة الغواصات، وبساط سليمان عليه السلام جعلني أعمد إلى استخدام الطائرات، ومن داود عليه السلام علمني صناعة الحديد واستخدام الآلات، وفي عمل إدريس عليه السلام هداني إلى علم النجوم، وفي تكليم موسى عليه السلام علمني استعمال الأثير، وفي المعراج لمحمد "صلى الله عليه وسلم" قرب الأذهان إلى بلوغ إجرام الكواكب وارتياد آفاقها كل هذه وغيرها من معجزات الأنبياء تتفتح بها أفكاري لأنها تشير علي إلى الانتفاع بقوى وعناصر الطبيعة، وقد كانت من قبل مغلقة الفهم حتى فتح الله أبوابها بهذه المعجزات؛ وأن كل ما ظهر في عالم الكشف العلمي أو من عالم الصناعة والرياضة وغيرها من العلوم والفنون ليس هو كل ما في الكون من أسرار، فإن كثيراً من أسرار الطبيعة وقواها مازال مسجوناً مستوراً.

وكلما عثرنا على حل لغز منها واجهنا لغزا آخر ثم آخر. ذلك لأن الموجودات مغمورة باللانهاية واللانهاية غارقة في اللاشعور، ولا يزال

يظهر كل حين مسائل ومسائل بإتحاد أنفسنا بالطبيعة واستجلاء غوامضها وأسرارها، متى أذن الله.

كلها مدهشات يحبسها الغفل	**فعال السماء أو أعمال جن**
كيف لا والحبيب أيد نصري	**أرسل الفيض في سحابة مزن**
أو لست الذي خليفة ربي	**قمت بالأمر حيث ربي أذني**
وقد أختار أن أكون أماماً	**فلي العرش والعلا والتكني**

وأن النظر في آفاق الطبيعة وموادها وقواها واستخدامها والعمل في أغوار المكونات واستجلاء غوامضها وأسرارها ما هي إلا وسيلة لمعرفة الحق ولبلوغ مرتبة التوحيد الخالص للخالق ولتنزيه مقام الربوبية عن كل مماثلة (وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ. فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ. فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ.فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ.)

هذا الدليل الكافي على أن النظر في الكون ليس مطلوباً لذاته بل للعلم بالله ولمعرفة قدرته وتوحيده، وهنالك مقام القرب منه ذلك الذي اختص به عباده المخلصين إليه الذين اصطفاهم واجتباهم إليه. فإن كل من حصل في هذا المقام على درجة حق له أن يفخر به وأن يترك السوى لأنها إزاء ذلك لا تستحق النظر إليها، وحق للإنسان أن يقول:

واجتبـــاني إلـــى مقـــام فريـــد فوق طور الوجود والحب فني
فريـــــاحي إذا تهــــب شـــــمالاً أو جنوبــاً تحــرك الوجــد منــي

قالوا لعل بعضاً من عشاق الجمال الحسي وجمال الطبيعة الجزئي يتخذونه سلماً للصعود عليه إلى محبة الجمال المطلق الذي تنوعت ظلاله وألوانه على المحسوسات والماديات ذلك الذي أكسبها سر الانجذاب إليها، فسرى تياره السحري فيها وسيطر على مشاعر العشاق وعواطفهم فهاموا به أيما هيام. فإذا كان هذا حال عشاق الجمال الجزئي كما صارت إلينا أخباره، فكيف يكون حال الذين تدرجوا من حب الصورة إلى حب المصور؟ وتوصلوا بحب المعاني الجزئية إلى حب المعاني الكلية وبالمقيد إلى المطلق ذلك الذي يسبح في جميع وحدات الملك في كافة حضرات الملكوت. وإذا كانت محاولة الاتحاد بعوالم الطبيعة تأتي بمثل هذه العلوم والفنون والمعارف، وتحدث كل هذا الهيام مع أن معانيها جزئية؟ فماذا يكون الشأن للذي يحاول الإتحاد بالمعاني الكلية فيحاول استشعار الاتحاد بالله وماذا يكون مبلغ علومه ومعارفه بل وهيامه؟

لذة القرب جد تستوعب الدهر كــأن الزمــان غمضـــة عـــين
موقــف فــذ فــوق نقــل وعقــل لا يـرى فيـه مـن شـعور بكـون
لحظـــات تمـــر بالقلـــب تبقـــى جنــة العــز والرضــا والتهنـــي
حالـــة تـــربط الخلـــود بوصـــل محنــة الحــب صــعقة الكــونين

تصور هذا الموقف، وفتش عن نفسك أين هي الموجودات، بل أين

هي منها أنك لن تجد الموجودات ولن تجد نفسك، فلن تحس بشيء ما لأنك مستغرق الشعور ذاهل عن كل شيء، وأن محبوبك ملأ عليك الدنيا أخذك من نفسك فخرجت من هذا الطور إلى طور آخر أصبحت لا ترى إلا (هو).

تلكــم الحــال لا ترجــى بصــحو	فهي تمحـو الفـروق بـين اثـنين
لا تقــل كيــف فــالجواب ســلام	واغمـض العين وامـح رؤية غين
إن تــرم صــوغها حــديثاً وذكــراً	لـم تـزد فـي الكـلام عـن حـرفين

أما هذه الهوية فهي التي سكر بها المحبون من الصوفية، وذهبت أرواحهم إليها، عندما دبت فيهم نشوة الشراب وتذوقوا سر كمال الذات وجمال الصفات، ففنت بشريتهم في روحانيتهم، وتحققوا بلذة القرب، وأيقنوا أنها السعادة التي ما بعدها سعادة، فلما عادوا من سكرهم إلى صحوهم أخذوا يدلون السالك عليها. فقالوا له إن أردت أن تحظى بنسمات القرب، وأن تجلس على بساط الأنس في حضرة القدس.

فــالتجئ للشــراب شــوقاً وذوقــاً	تعمـر القلـب والسـعادة تجنـي
والــتمس منــه مــا يــروق ويحلــو	مثـل لـون الزجـاج لـون اللجين
فهـو ينبيـك عنـدما تلعب الخمر	ويــأتي الــذهول عــن طــورين

فالطور الأول طور الفناء عن السوي، والطور الثاني طور البقاء مع المحبوب، فإذا فنيت عن نفسك وعن السوى، بقيت مستشعراً جمال الذات والصفات وأصبح مرادك فلا يتحرك لسانك إلا بذكره. ولا تشهد

عينك إلى محاسن جماله، ولا يخطر لك خاطر إلا فيه؛ ولا تفعل إلا ما يوجهك إليه. فإذا صحوت من سكرك، واستذكرت ما كنت فيه في حال هي البهجة والسرور التام حاولت العودة إلى ذلك المقام وأردت وصفه فعجزت أن تقول شيئاً، وما وجدت إلا ما يختمر فؤادك من لواعج.

ذاك تيـــار مـــن أنـــين ووجـــد　　　وهـو موجـات بـين مـد وغـن

فلا يمكنك إلا إظهار هذه النفثات والتأوهات، أما صفة الحال ولذة المقام فهي من خصوص الروح سر مكنون يخفى على الجوارح ولا تعرفه الحواس، وكيف يمكن وصف شيء يتعالى على الحواس فلا يمكنها التعبير عنه بلغتها، وللحب لغة خاصة وللروح سر خاص.

لغـــة الحـــب كالطلاســـم لغـــز　　　كهربـــاء تـــدب فـــي قلبـــين

قلمـا الترجمـان يصـطنع الشـرح　　　ويرضـــي البيـــان فـــي لغتـــين

فعلى الذين يريدون الوقوف على حال المحبين، وتعرف بعض الحقائق التي ذهبت بهم إلى اتجاهاتهم أن يحاولوا الاضطلاع بنوع من المحبة، وأن يحوموا حول حماها المقدس، وأن يشقوا لأنفسهم طريقاً إليها قبل أن يوجهوا إلى المحبين الملامة والمطاعن أو أن يسلموا لهم أحوالهم ولو ببعض التحفظات؛ وعلى السالكين سبيل المحبة أن يستبقوا على أنفسهم ولو بقليل من التريث حتى لا يثيرون عليهم غضب الخصوم، فإن سبيل الشريعة القصد، وفي القصد ضمان من الفتنة.

كـــل مـــن رام للكمـــال مقامـــاً　　　فبلـــوغ الســـبيل بالحســـنين

استدراك واعتذار

لم أجد من الوقت متسعاً لشرح قصيدة (الحب والمحبوب) ثالثة القصائد التي يصدر بها الكتاب، والواقع أن هذا الثالوث يغذي بعضه بعضاً مع فوارق جزئية لا تحتاج إلى بيان آخر، فالفكرة واحدة في أصلها. وإني في الختام أستدرك ما كان يجب أن يكون في الصدر، ورابع القصائد (التصوف) فأتم بها الكتاب، فلقد كنت وضعت هذه القصيدة سنة ١٩٣١، ونشرت منها (مجلة المعرفة) جزءًا بعدد يوليو، ولما كانت تحتوي وتلم بكثير من مواضيع التصوف رأيت نشرها إتماماً للغرض المقصود. وإني أعتذر للقراء أن وجدوا في الكتاب عدم الترتيب والتبويب أو عدم الإشارة لبعض المراجع أو لأسماء بعض الكتاب الذين قد استعنت بأقوالهم عن سهو لا عن سوء قصد أو عدم تقدير لاسيما وقد نوهت في المقدمة أني سأكتب للإخوان وللأحباب موجزاً مما قرأت لا مما ابتكرت، ولست أزعم أني أضع (رسالة) في الموضوع على المعنى المصطلح عليه، بل هي حكاية أرجو أن أكون قد وفقت فيها بعض التوفيق، فأكون قد أديت لهم بعض ما يجب نحوهم ونحو التصوف، والله عنده الأجر والثواب، وإنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى.

التصوف

عجباً يصير مدى التصوف هكذا قلب الحقائق وامتهان معاني

تحريف أوضاع وسوء تفهم وسقوط مرتبه وفعل هوان

أوهام شعوذة وعلم كهانة وطقوس مخرقة وذلة جاني

****

قوم أضاعوا حسنه وجلاله ومهابة الإرشاد والتبيان

قد بدلوه حماقة وسخافة هزوا وسخرية الزمار العاني

أضحى بفعلهم مشوباً باهتاً ومحرفاً عن شرعة العرفان

فجماعة لا يفقهون أصوله دخلوا بضعف عزيمة ودهان

وجماعة اتخذوا المظاهر حرفة تركوا اللباب وأمسكوا بمباني

تخذوه للعيش الرخيص وسيلة من غير إقبال ولا إذعان

فأولاء قوم لا تساق أمورهم لحصيلة العلم الشريف الهاني

ظلموا التصوف حين ولوا شطره ليجب ما فعلوا من البهتان

****

أما الذين قد افتروا وتحللوا من جادة التكليف بالإعلان

فأولاء قوم ما استحقوا نظرة وليئس ما فعلوا من الخسران

****

إن قيل جذب، قلت ستراً للخنا والجذب إذ يعلو فللديان

والجـذب إذ يـنحط فهـو مطيـة لـــدوافع الإفســـاد والطغيـــان

****

أمـا الولايـة فهـي منزلـة التقـى وترســم الأحكـام فــي إيقــان

أو مــن تــولى الله يــألف شــرعة دون التـي أوحـى مـن القـرآن؟

أم مـــن تـــولاه الإلـــه يقـــوده لمـواطن الإسـفاف والحرمـان

****

والفـيض إلهـام علـى هـابط بـالفتح والتقـوى وبالإحسـان

فـإذا تسـفل لـم يكـن إلا هـوى أو فعـل وسوسـة مـن الشـيطان

****

والكشـف إدراك البصـيرة للنهـي مـن منبـع الأسـرار والفرقـان

وكذا الشهود هو انغمار في هدى فـي الحـق دون تتبـع البرهـان

****

أمـا الكرامـة وهـي أمـر خـارق أجـراه ذو الإكـرام للإنسـان

نصـر وتأييـد لـنفس آمنـت حتـى تصـير بنجـوى وأمـان

ليسـت تجـئ كمـا تريـد وكلمـا رمـت التحـدي لالتمـاس رهـان

فـإذا لمحـت وقوعهـا لمغـانم فوسـيلة اسـتدراج واسـتهجان

****

تلك الأمور من التصوف إن سمت وفـق الشـريعة باكتمـال جنـان

فهـو السـمو إلـى الكمـال وسـلم ترقـى عليـه الـروح للـديَّان

علـم القلـوب وغسـلها مـع ملئهـا بـالطهر والعرفـان والإيمـان

يهـدي إلـى ذوق الفضـيلة والتقـى ومراتـــب التوحيـــد والإيقـــان

علـــم مؤيـــد بالشـــريعة كنهـــه ومـــدعم بشـــواهد القـــرآن

علـم سـيريك مـن النفـوس دخيلهـا ومـــن الطوايـــا فتنـــة الفتـــان

يتعقـــب الشـــيطان أنـــى ينتهـــي فيســـد تـــوا مســـلك الشـــيطان

فهـو الطبيـب البـاطني لـدى ضـنا ولمهجـة ولهـى وقلـب عـاني

وإذا تعـدى الشـرع فهـو ملفـق ومعـرض للمقـت والحرمـان

في سيرة السند الرسول المصطفى ظهـر التصـوف ثابـت الأركـان

كـان التحنـث مـن أخـص طباعـه (وحراء) يشهد كيف كان يعاني

زهـد وتقـوى والتمـاس للنهـى ولطـائف الرحمـات والإحسـان

زكـت المحبـة فـي طهـارة قلبـه تسـمو مـع الإيثـار والإيمـان

فتأمـــل وتفكـــر وتوســـل وتعلـــق بلوامـــع الإيقـــان

فهنـاك لازمـت الحقـائق فكـرة رهـن الظهـور بآيـة وزمـان

إشـعاع نـور فـي مفـاوز حيـرة تغـزو الفـؤاد بوحـدة الـديَّان

فـأحس أن الحـق بـالغ أمـره ومطهـر لعقائـد الإنسـان

حتـى انتهـى للـوحي فـي تفصـيله والأذن جـاء بمحكـم القـرآن

جهـر النبـي بدينـه فـي قـوة ونبالـة وحصـافة وبيـان

فحياتـه قبـل الرسـالة يقظـة نفـس زكيـة فـي هـدي وجـدان

****

نقـد التصـوف سـادة لـم يؤمنـوا بمسـائل الإيحـاء فـي الأذهـان

بحثوا بسوء الظن فيه فأوجسوا وتحمسوا لظواهر الأركان
قالوا عناصر أجنبية كلها علقت به من جملة الأديان
فأتوا له من كل واد صبغة دين الهنود وحكمة اليونان
حتى الحلول والاتحاد تداخلا مما بدا في الجانب النصراني

****

شبه بعيدة الاحتمال لأنها ضربان في التحقيق يختلفان
وتشابه شكلي في أوضاعه والشكل لا يغني عن البنيان

****

قالوا، دخيل لا يلائم ديننا يدع الحياة رهينة الجدران
فالزهد في الدنيا يحقر أمرها وهي السبيل لرفعة الإنسان
فإذا قعدنا للعبادة وحدها فمصيرنا كمصائر الرهبان
وحقيقة الإسلام تجمع طيها روح السمو وعزة الأوطان
فالسعي للدنيا وقمة مجدها بالحسنيين وسيلة الرضوان
والدين للدنيا وللأخرى معاً نهج ثنى ينتهي لأمان

****

قلت التصوف ليس زهداً كله فالزهد فرع لاح في أغصان
والزهد في الإسلام بذل وقرى والبذل لا يأتي من الفقدان
فمن الزهادة أن علقت بثروة تيسير وجه الخير والإحسان
ومن الزهادة حين يدهمنا العدى بيع النفوس لرد كيد الجاني
والزهد ضد الشح إن حققته لا الزهد في الأسباب والميدان

والزهد في طبع النفوس جميعها كفل التسامي للملا النوراني
ما اختص دين بالتزام سبيله لحقيقة في الأصل دون الثاني
فهناك أحوال النفوس تشابهت بنوازع في نشأة وكيان
فترى الزهادة والعبادة مطلباً للحد من شطط النفوس الشاني
وتصوف الإسلام ليس ترهباً بل فكرة وتأمل وتداني
بل ليس فلسفة لغير هداية تنساب للإلحاد والكفران

****

قالوا تفلسف معشر قد أسرفوا وتصايحوا بالشطح والدوران
قد أقحموا أحوالهم بمزالق من كل صوب بالخطير القاني
لم يفصحوا عما تكن صدورهم واستعجموا بالرمز والكتمان
واستعملوا باب المجاز وألغزوا أسرارهم بمعاقل الأذهان
فاستشكل المفهوم من موضوعهم وبدت (سعاد) كثيرة الألوان
فإذا تتبعت العبارة خلتها ضرباً في التضليل والبهتان
ما بين فلسفة وبين تدين لا تستبين حقيقة الإيمان
وتكلف التأويل يتبعه الهوى ولكل مسألة إذن قولان
والشرع وفي بالصراحة هدية لم يبق شيئاً غامض العرفان
قلت المحبة شأنها التلوين والتمكين في الإسرار والإعلان
والحب إغراق الفؤاد وملؤه بمحاسن المحبوب والنشدان
أشواق تغلي في مراحل تكتوي وتفور بالإحراق والغليان

والوصل قرب، حالة روحية | أنوار تضوي في لطيف أواني
هو دهشة في حيرة في غمرة | تدع المحب ملون الأشجان
فالود هجر والدنو تباعد | حالان للإظهار والإبطان

****

والقوم ذاقوا في المحبة للهنا | وغدى وجودهم إلى العقدان
وغدى الوجود الحق عندهم أذن | القوة العليا لدى الأكوان
شهدوا الجمال الحق بين وجوده | في كل ظاهرة وكل مكان
لم تبق في الأكوان أية ذرة | إلا وفيها للحبيب معاني
قوم لهم في كل علم جولة | غاصوا لكل دقائق وثواني
فإذن تأذن صحوهم وتكلموا | مزجوا التقى بلواعج الوجدان

****

إن شئت قلت شريعة في آية | أو شئت قلت حقيقة بتداني
أو شئت قلت عبارة أدلى بها | كلف المحب ونشوة السكران
أو شئت قلت رطانة أدت إلى | شطح المشاعر وانزلاق لسان
أو شئت قلت تهافت يغدو إلى | صبغ الأدلة صبغة الرجحان
والحق أن كلامهم ذو لذة | للمدنف المشتاق والولهان

****

حاشا لقوم قد فنوا في حبهم | أن ينزلوا بالحب للكفران
والحب تنزيه الحبيب بقدسه | فمحال أن ينحط للنقصان

****

أصل الحلول لدى العبارة كونه | تقييد شيء في حدود مكان
أمـــا حقيقــــة الاتحــــاد | فإنها شيئان يختلطان يمتزجان
وكلاهمـــا لا يعقـــلان لفاعـــل | مـــع أي مفعـــول وممتنعـــان
لا يســتوي ميــت بحــي إنمــا | تحيا القلوب بنفحة الرحمن
مــا ثــم إلا واحــد فــي قدســه | مولى الوجود وخالق الأزمان

****

والقوم قد لزموا برغم شذوذهم | أمر العبادة والسلوك الهاني
وتعهدوا الإرشاد في سنن الهدى | للطـــالبين بهمـــة وجنـــان
أدوا فرائضــهم بـذوب قلـوبهم | عبـدوا الإلـه بوقـدة الأذهـان
عرفـوا العبـادة أنهـا فقـدانهم | لعـــوالم التقييـــد والإمكـــان
فاســتغرقوا فيهـا الوجـود بأسـره | في حضرة الإطلاق والإحسان
وغـدى حـديثهم بحـال فنـائهم | في عرفهم من أعذب الألحان

****

فإثــارة التشــبيه لفــظ عــابر | لا يســتقيم ووحــدة الــديَّان
لكــن إرســال الكــلام ونظمــه | يحتـاج للحسـوس فـي التبيـان
وتشــابه الأســماء لـيس ذريعـة | لتـــزاوج الأفكـــار بـــالأقران
وتشــابه التصــوير لـيس بملــزم | لتشــابه فـــي مــادة البنيــان

****

شـــتان بـــين مشـــبه ومنـــزه | هــذا طبيعــي ثــم ذا روحــاني
فمدار أبواب التفلسف عندهم | رد الشـكوك ولهفـة الحيـران

كـي لا يقـال بـأنهم قـد قصـروا عـن درك مـا للعقـل مـن أفنـان
ومــرادهم بــث الحقيقــة أينمــا وجدوا السبيل بلفظ أي لسان
لو لم تكن تلك الخلال صفاتهم لــرميتهم وطعنـــتهم بســـناني

****

قـالوا الطريـق عسـيرة ومحوطـة بالفتنـــة العميـــاء والفتـــان
والنفس قد جبلت بحكم طباعها أن تستجيب إلى الهوى وتعاني
فـإذا تركنـا الـنفس دون رعايـة دلفـت إلـى الإغـراق والإذعـان
بـل ربمـا سـقطت بـدعوى أنهـا تعلـو وكـان العكـس للنقصـان
والشــرع قــانون يحــدد سـيرها لمنـــازل العليـــاء والرجحـــان

****

قلـت: الطريق هو التزام جهادها وحسـابها عـن أوجـه الـبطلان
وهـو انتهـاج رياضـة تسـلو بهـا عـن كـل مـا لفـت مـن البهتـان

****

والـنفس فطرتهـا الصـفاء وكيفهـا مثـل الأثيـر لطيفـة السـيلان
تنساق في عجل وتسبح سبحها كالكهربـــاء قويـــة الســـريان
أضـحت مصـفدة القوى وحبيسـة بـين القيـود وثوبهـا الجسـماني

****

والنفس عنصرها الأصيل ملائكي مـردت بمـا علقـت مـن الأدران
هبطت لطور في الطبيعة فانزوت وتحـــوّرت لغرائـــز الحيـــوان
قد صح ترويض الوحوش وقودها لـم لا نـروض وحشـنا النفسـاني

الــنفس مــرآة يغطيهــا الصــدأ وهو الحجاب القائم الظلماني

فإذا انجلت ظهر الوجود وما به في طـي صـفحتها بوجـه ثـاني

صــور العــوالم والعلــوم ومــا لهــا مــن حكمــة وتناســق ومعــاني

وإذن تصــير حكيمــة وعليمــة بــدقائق الأشــياء والأعيــان

لــم لا تعــود لأصــلها ومعينهــا فتكـون فـي وهـج وفـي لمعـان

لــم لا تنــاغم إلفهــا ولُــدّاتها فــي عــالم الأرواح والنــوراني

****



الفهرس